

## سرعة البصاحة

سرعة البداهة في الرجل موهبة من الله ﷻ يمنحها من يشاء، وخاصة إذا سُخِّرَتْ في الخير.

ومن مواقف سرعة البداهة ما ذكره أهل الأدب أن أحد الشعراء دخل على الأمير المَهْلَبِيِّ في العراق، وكان المَهْلَبِيُّ الوزير مَهِيْبًا غَضُوبًا عَبُوسًا، فدخل عليه الشاعر وقت المساء، وأراد أن يقول: كيف أمسيت أيها الأمير؟ فغلط الشاعر من الرهبة وخوف الموقف، فقال: كيف أصبحت أيها الأمير؟ فقال: هذا مساء أو صباح؟ فأطرق الشاعر قليلاً، ثم رفع رأسه وقال:

صَبَحْتُهُ عِنْدَ الْمَسَاءِ فَقَالَ لِي: مَاذَا الصَّبَاحُ؟ وَظَنَّ ذَلِكَ مِزَاحًا  
فَأَجَبْتُهُ: إِشْرَاقُ وَجْهِكَ عَرْنِي حَتَّى تَبْيُتَّ الْمَسَاءُ صَبَاحًا

وعلى هذا كانت أجوبة علي بن أبي طالب أبي الحسن، إذ يقولون: كان من أسرع الناس جوابًا؛ لسرعة بدهاته. «قَالَ لَهُ رَجُلٌ: لَمَّاذَا اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَاخْتَلَفُوا عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: لِأَنَّ رَعِيَّةَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ أَنَا وَأَمْثَالِي، وَرَعِيَّتِي أَنْتَ وَأَمْثَالُكَ. قَالَ: أَنْتَ خَيْرُ النَّاسِ. فَقَالَ: أَنَا فَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ وَدُونَ مَا تَقُولُ». و«قِيلَ لَهُ: كَمْ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ؟ قَالَ: مَسِيرَةُ الشَّمْسِ يَوْمًا. قِيلَ لَهُ: كَمْ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالْعَرْشِ؟ قَالَ: دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ». وأهل الأدب يذكرون أن أبا العلاء المعري ذهب إلى الشريف الرضي في مجلسه، وكان الشريف الرضي لا يحب المتنبي، والمتنبي هو شيخ أبي العلاء المعري، فوقف عنده، وذكر شعر المتنبي، فهوّن الشريف الرضي شعر المتنبي ومن استشهاده ومن قوة شاعريته، فقال: أيها الأمير، لا تُهَوِّنْ من شعر المتنبي؛ لو لم يكن له إلا قصيدة:

لِكِ يَا مَنَازِلَ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ أَفْضَرْتَ أَنْتِ وَهُنَّ مِنْهُ أَوَاهِلُ

لكفى.

قال الأمير: أخرجوه من مجلسي. فقال الناس للأمير الشريف الرضي: ما قال أبو العلاء سوءًا قال: بلى، هو استشهد بهذه القصيدة مع العلم أن للمتنبي أحسن منها، لكن قصده آخر القصيدة، وهو قوله:

وَإِذَا أَتَيْتَكَ مَذْمَمَتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشُّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلُ

فانظر كيف استحضر القصيدة سريعاً، وانتزع هذا البيت؛ وهذا من أجمل الأبيات، فإذا ذمك إنسان قليل قدر، فهو دلالة على سمو قدرك، وارتفاع كعبك في المكارم.



## سرعة البصيرة

ثم ذكروا أن أبا جعفر المنصور كان من الأذكياء وصاحب أدب، ذهب إلى مدينة الرسول ﷺ وهو ملك، فقال: من يطلعنا على آثار الصحابة ﷺ، وعلى أسماء بيوت المهاجرين والأنصار؟ فأتوا بشيخ كبير - بالأجرة - مُطَوِّفٍ، وقال له أبو جعفر: أخبرني - فقط - باسم صاحب البيت، ولا تُكثِر علي. وذلك لأنه لا يحتمل كثرة الكلام، فأخذه من الصباح إلى المساء، يقول: هذا بيت عمر ابن الخطاب، هذا بيت عثمان، هذا بيت سعد بن معاذ، هذا بيت حسان بن ثابت ﷺ. ونسوا أن يعطوه الأجرة، وفي اليوم الثاني طلب الشيخ، فقال: اتتوني بالشيخ علي. فأتوا به، فأخذ يدل أبا جعفر ويصف له البيوت، حتى أتى إلى بيت الأحوص الأنصاري الشاعر، فقال: هذا - يا أمير المؤمنين - بيت الأحوص الأنصاري الشاعر الذي يقول:

يَا بَيْتَ عَاتِكَةَ الَّذِي اتَّعَزَلُ      أَكْرُ الْعِدَى وَبِهِ الْفُؤَادُ مُوَكَّلُ  
إِنِّي لَأَمْنُحُكَ الصُّنُودَ وَإِنِّي      قَسَمًا إِلَيْكَ مَعَ الصُّنُودِ لَأَمِيلُ

فوجم أبو جعفر، وتعجب لماذا استشهد الرجل بهذه الأبيات؟ فقال: أكملوا القصيدة. فأكملوا القصيدة، فإذا في آخرها:

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ      مَذِقُ الْكَلَامِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ

قال: ما أعطيتموه الأجرة؟ قالوا: لا. قال: الآن هو يطلب الأجرة في القصيدة والاستشهاد، وهذا من هذا.

ثم إن أبا تمام من أشهر الشعراء بلا شك ويأتي بعد المتنبي، وقف عند المعتصم ينشده قصيدته التي يقول في مطلعها:

مَا فِي وَقُوفِكَ سَاعَةٌ مِنْ بَأْسِ      نَقْضِي ذِمَامَ الْأَرْبَعِ الْأَدْرَاسِ

إلى أن يقول:



إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمِ أَحْنَفَ فِي ذِكَاةِ إِيَّاسِ

فقام الطبيب الكندي- وكان الفيلسوف وكان حاضراً- فقال: ما زدت على أن وصفت أمير المؤمنين بأجلاف العرب فوجم قليلاً أبو تمام ثم ورد الأبيات:

لَا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مِنْ دُونِهِ مَثَلًا شَرُودًا فِي النَّدَا وَالْبَاسِ  
فَدَالَهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَلُ لِنُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ

فحمده فعله في ذلك، فقال الطبيب الفيلسوف: هذا لا يعيش طويلاً. وفعلاً مات أبو تمام وعمره (٤٦ سنة)؛ قال: لأن عقله يأكل جسمه. فدائماً الأذكاء تجد عندهم من الاندفاع، ومن حدة خاطر، وجودة الرأي ما يؤثر على أجسامهم في الغالب.

وذكروا- أيضاً- أن أحد الوزراء كان في مجلس، فقال لأحد الشعراء: من يكمل لي بيت شعر بيداً بكلمة وينتهي بنفس الكلمة؟ قالوا: أعطنا الكلمة أيها الوزير. قال: سَمِسِمَةٌ. فقال الشاعر الأول:

سِمِسِمَةٌ فِي الْعِلْمِ تُحْمَدُ بِهَا وَاحْمَدُ لِمَنْ أُعْطِيَ وَكُو سِمِسِمَةٌ

أي: اطلب علامة تُحمَد، وتشكر فيها في العلم، واحمد الله ~~بها~~ ولو أعطاك سمسة. وفي الآخر قال: ملامة. فقال الثاني:

مَلَامَةٌ الْوُكُسَاءِ فِي خِدْرِهَا الْأَلْمُ مِنْ حُرِّ أُنْسِ مَلَامَةٌ

الملامة: الجارية الغبية في خدرها، أشد بخلاً وأشد ملامة من الحر الذي يأتي ملامة: أي: ما يلام عليه من الأفعال الشنيعة:

وَالْمَخُ كَمَا لَ الْفُضْلِ حَتَّى تُرَى قَاضٍ يُدِيرُ الْحُكْمَ فِي الْمَحْكَمَةِ

قال: ألجم. فقال:

أَلْجَمَ جِمَاحَ النَّفْسِ عَنْ غَيْهَا فَغَيْهَا يُذْهِبُ بِالْجُمُجُمَةِ



## سرعة البصاهة

وهكذا، وهذا من سرعة البداهة التي تحضر لبعض الشعراء، وهي موهبة، فمن سخرها في الخير أُجر على ذلك.

وقرأت في (سفينة الأدب والتاريخ) أن أحد الأعيان والوجهاء كان مشهوراً بأكل الربا، وهو يعرف: السحت. وكان كذوباً، فدعا أناساً من الأدباء وبعض الأعيان للغداء، وفُرِشت المائدة أمامهم، وجلس عندهم - وهو لا يتغدى - ويحدث لهم بقصص من الأوهام والخيالات والخرافات وهم يأكلون، فهم يرون أن أكلهم من الربا وهو يتكلم بالكذب، ثم صاح بأحد الأدباء، فقال: كيف أنتم يا فلان؟ قال الأديب: سمّعون للكذب، أكلون للسحت. وهذا في كتاب الله **يُرْوَى** يقوله **يُرْوَى** عن أعدائه اليهود: **﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ﴾** [المائدة: ٤٢]. وهذا من سرعة البداهة التي لا تتأني لكل أحد.

قرأت أن أحد القادة المشهورين مرّ في مدينة بسرداب، والسرداب مثل الشارع الضيق. وفي أحد جنبات السرداب جزار ولا يعلم أن القائد الشجاع سوف يمر، وكان قد ذبح شاة، وأراد أن يرمي ببقية الشاة، مثل: الكراع، والرأس. وعليها دم، ويريد أن يرميها في الشارع، ولم يعلم أن هذا القائد يمر بموكبه في هذه اللحظة، فمر، فرمى، فوقع بعض الدم على جسم هذا القائد وعلى ثيابه وعلى عمامته، وكان بطاشاً ظلوماً غشوماً، وأراد أن يبطش به، فقال أحد الأدباء وكان معه: أيها القائد، يقول أبو الطيب:

لا يَسْلَمُ الشَّرْفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى      حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُّ

قال: عفوت عنه؛ لأجل هذا البيت. وهذه من قصيدة مشهورة لأبي الطيب، مطلعها:

لَهُوَى النُّفُوسِ سَرِيرَةٌ لَا تُعْلَمُ      عَرَضاً نَظَرْتُ وَخِلْتُ أَنِّي أَسْلَمُ

ومنها:

دُو الْعُقْلِ يَشْقَى فِي النِّعَمِ بِعُقْلِهِ      وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ



إلى أن يقول:

لَا يَسْلَمُ الشَّرْفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ

أي: إن المجد العالي يحتاج إلى نضال وإلى كفاح وإلى مدافعة، حتى إلى تضحيات بالغير؛ ليستقيم الأمر، لكن انظر إلى استشهد هذا الأديب في هذه المناسبة، حتى أعتق هذا الجزار من القتل، أو من الأذى.

وذكر الإمام العلامة الكبير ابن حزم الظاهري، قال: كان أبي مُستشاراً في الديوان عند أحد ملوك الأندلس، قال: فأتى عدوُّه يراجع أبي في مسألة، فكتب خطاباً لأبي، وكتب في الخطاب- وهذا من قلة الحيلة وقلة الذكاء- قول أبي الطيب:

وَمِنْ نَكْدِ الدُّنْيَا عَلَى الْخُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُ

فأنت تحتاج إلى هذا الوزير، وتريد أن تراجع في أمر، فتكتب هذا البيت الذي مقصوده: إننا مضطرون لك وأنت عدو لنا، لكنا حملتنا الضرورة والحاجة لأن نصانعك، وما كان ينبغي أن نفعل ذلك. فمن ذكاء والد ابن حزم أن قلب اللفظ، فقال:

وَمِنْ نَكْدِ الدُّنْيَا عَلَى الْخُرِّ أَنْ يَرَى صَدِيقًا لَهُ مَا مِنْ عَدَاوَتِهِ بُدُ

أي: إنك كنت صديقاً قبل، لكنك اضطررتنا الآن، وأغضبتنا إلى أن نجعلك عدواً بالغضب والقوة. وهذا يفعله بعض الناس من الهُجُج، بأن يستخدم بعض العبارات التي لا تجدي، وقد تكلفه روحه، أو تكلفه موقفه أو مصلحته، حتى إن الله ﷻ يقول في كتابه العزيز: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٥٣]. أي: يختارون من العبارات اللينة الموقفة التي تدعو إلى الوفاق، وإلى المسامحة، أحسن من اختيار العبارات التي تُزعج.

## سرعة البصائر

ومن هذا الباب أن امرأة كانت مارة في مجلس في الكوفة، وفيها قوم يظهر أنهم من بني نعيم، فنظروا إليها، فالتفت إليهم، فقالت: قاتلكم الله يا نعيم، أنتم لا أخذتم بقول الله ﷻ ولا بقول جرير، فإلهه ﷻ يقول: ﴿قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَخْضَعُونَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]. وجرير يقول:

فَغَضُّ الطَّرْفِ إِنَّكَ مِنْ نُعْمِيرٍ      فَلَا كَغَبَابٍ بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابَا

انظر لها كيف استخدمت الأمرين، واستشهدت في الحال المناسب بهذا الاستشهاد المناسب في وقته! وهذا من الذكاء المفرد.

ذكر الذهبي عن أبي مسلم الخراساني القائد المشهور، وهو من القادة الكبار، الذي نقل دولة بني أمية إلى بني العباس. وكان من الذكاء على نحو عجيب، قُتِلَ وَعُمِرُهُ (٣٩ سنة) كان يخطب بالناس في يوم الجمعة، وعليه عمامة سوداء، فقام أحد الناس - وهذا طُفَيْلِي متعجل - وقال في المسجد: لماذا تلبس السوداء، وقد نُهينا عن لبس السوداء! والسواد هو شعار الدولة العباسية، فالتفت أبو مسلم إلى الرجل وقال - وهو مرتجل وما قطع كلامه: حدثني فلان، عن فلان، عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءٌ». وقال: يا غلام، اضرب عنقه. فقتله أمام الناس وأتى بالحديث، فعجب الناس من سرعة بدهته، وحفظه للحديث وهو قائد عسكري وقائد سياسي، وأمر بالقتل في الحال!

ومن هذا الباب ينبغي - أيضاً - ألا تستخدم سرعة البدهة في النيل من الناس والتعرض لهم والإضرار بهم؛ لأن من عنده جرأة في الحديث أحياناً إذا لم يكن عنده تقوى، ولم يكن عنده وازع ديني أسرع بالكلام فيما يشتهي، ولذلك كانت سرعة بدهة الأخيار والأبرار فيما يرفع وفيما يقيم، وأذكر من المعاصرين أحد العلماء، ذهب إلى دولة من الدول - وهي دولته، لكن منعه من الدخول فيها؛ لأمر سياسي - فوصل المطار وأمر أن يُعاد من المطار، وأن يخرج خارج الوطن، فلما

رجع إلى أصحابه قالوا: كيف وجدت المدينة التي ذهبت إليها؟ قال: مُلئتُ حرساً شديداً وشُهْباً. وهذا من أسلوب القرآن الكريم.

وعلى سبيل اختيار الألفاظ حدثني أحد الأدباء في الرياض أنه قرأ أن هتلر لما اتجهت جيوشه إلى بلغراد، متجهة إلى موسكو، وفي تلك المدة ألقى خطاباً عالمياً أذيع على العالم، فطلب أن تُختار له كلمة من الكتب السماوية: القرآن، أو الإنجيل، أو التوراة، تملأ الجو والمكان والزمان، وكان عندهم هناك أديب عراقي لاجئ في ألمانيا، فأتاه الخبر، فقال: أرى أن هتلر يبدأ خطابه الليلة بقوله ﴿قَرَّبِي السَّاعَةَ وَالسَّاعَةَ الْقَمْرُ﴾ [القمر: ١]. هذا الكلام الذي يملأ الجو ويملأ المكان ويملأ الزمان، فبدأ بهذا الخطاب، ولذلك أسلوب القرآن عجيب، حتى الجن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]. فهم ذهلوا وعجبوا، حتى الجن سمعوا هذا الكتاب، فقالوا: إنا سمعنا قرآناً عجيباً. فإذا عَلِمَ هذا، فهذه بعض المواقف الشعرية، وقد قرأت أن بعض الأدباء كان جالساً، فأقبل عالم - وبعض العلماء يرى عدم القيام، وهذا رأي من المذاهب - فقام الأديب له، فقال العالم: اجلس، لا يجوز القيام. وهذا على مذهبه، فقال الأديب الشاعر:

قِيَامِي - وَالْإِلَهَ - إِلَيْكَ حَقٌّ      وَتَرَكُ الْحَقِّ مَا لَا يَسْتَقِيمُ  
وَهَلْ رَجُلٌ لَهُ نُبٌّ وَعَقْلٌ      يَرَاكَ تَسِيرُ إِلَيْهِ وَلَا يَقُومُ

فانظر كيف حضر له مثل هذا المعنى، ومثل هذه الأبيات في هذا المكان، والمواقف في ذلك كثيرة ولكن السلف الصالح - ذكروا عنهم - أنهم ما كانوا يستخدمون مثل هذا؛ لأنهم يخشون أن يكون شيء من المباهاة، حتى يقول الحسن: أترك بعض الكلام؛ خشية العجب. أي: يترك بعض الاختيارات والاستشهادات؛ خشية من العجب. وبعضهم يتركه خشية من العين، فإن إباساً القاضي كان من أذكى الناس، ولذلك كان يُخشى عليه من العين؛ لتسديده في القضاء، وتسديده في الإجابة. ومن أكثر من كان يجيب شريك القاضي؛ قال له رجل: من عندنا خرج العلم. أي: من الكوفة. قال: ثم لم يعد إليكم أبداً.

## خشبة الموت

عند الأدباء مصطلح اسمه: خشبة الموت. وهي النهاية للإنسان، أو الصلب له، أو القتل أمام الجماهير. وعادة ما يُفعل لمن كان ذا مكانة أو مشهوراً أو زعيماً أو جواداً أو بطلاً، ومن سادة مَنْ فُعِلَ بِهِ وَصِّلَبَ أمام العالم عبد الله بن الزبير «ابن حواري الرسول ﷺ، صلبه الحجاج الظالم، حتى مرت أسماء بنت أبي بكر «وكانت عمياء، وأخبروها أن ابنها مصلوب، فقالت: «أَمَا أَنْ لِهَذَا الْفَارِسِ أَنْ يَنْتَرَجَلَ». ومر التاريخ برواياته على من صُلِبُوا، ومن أشهرهم وأكثرهم اعتباراً في الأمة،

وذيوعاً في التاريخ ابن بقرية الوزير، وكان وزيراً عباسياً ذا كرم ونجدة ومروءة، حتى إنه تكفل لمن يحفظ القرآن بجائزة ثمينة ببغداد، وكان ينفق على العلماء ويُطعم المساكين، ومرَّ جَدَّبٌ في بغداد وقحط، فأخذ الأضحية من ماله وجعلها لأهل بغداد، وقد آتاه الله مالاً، لكن ليس كل إنسان آتاه الله مالاً يكون جواداً، ولكن إذا اجتمع الجود والمال فهو الكمال، وهذا الذي حصل لابن بقرية، وكان الملك في تلك المدة عضد الدولة فن خسرو الديلمي، وكان باطشاً قوياً وهو من جبابرة الملوك، وهو المقصود الذي مدحه المتنبي بقوله في قصيدة طويلة:

فَمَا لِكَ مِنْ يُقْصِرُ عَنْ مَدَاكَا	فَمَا مَلِكٌ إِذَا إِلَّا فِدَاكَا
أَرْوَحُ وَقَدْ خُتِمَتْ عَلَى فُؤَادِي	بِحُبِّكَ أَنْ يَحُلَّ بِهِ سِوَاكَا
إِذَا اسْتَبَكَّتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودِ	تَبَيَّنَ مِنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكِي

عضد الدولة مدحه المتنبي - أيضاً - في قصيدة أخرى، واسمه فن خسرو

يقول:

فَمَا يُسَمَّى كَفَنُخْسَرُو مُسَمَى      وَلَا يُكْنَى كَفَنُخْسَرُو كَانِي

يقول: لا يسمَّى بمثل اسمك أحد، ولا يُكنى بمثلك أحد.

الشاهد أن هذا الملك غضب وأصابته الغيرة من الوزير ابن بقرية؛ لما يمتاز به من كرم وجود وغيرهما من الصفات الطيبة، فاحتال عليه، حتى وضعوه للفيلة في بغداد وقُتِلَ وصُلِبَ، في ليل بطيء النجوم، ليل صعب على أهل بغداد وعلى أهل العراق، وجاء الخبر في الصباح مع الأذان: قُتِلَ ابن بقرية مع الأذان وهو مصلوب عند باب الطاق. وباب الطاق مدخل بغداد، وهناك خشبة الموت صُلِبَ عليها ابن الوزير مُسَمَّرُ اليدين ونصفه الأعلى عارٍ، والرياح تلمح وجهه، وهو منتصب كأنه علم وكأنه عمود، وجاء الخبر أبا الحسن الأنباري المحدث والمفسر الأديب في المسجد، فقال لطلابه: قوموا بنا؛ وفاءً للذمة وإعادة الحق والخير لفاعله

## عَشْرَةَ الْمَوْتِ

ومسديه ابن بقيه، فذهب ووقف أمام الجثمان وإذا بابن بقيه على حاله، والناس مصطفىون أمام ابن بقيه، هذا يدعو وهذا يبكي وهذا يشير بيده وهذا يترحم عليه، وهذا ينظم قصيدة، فسَلَّمَ أبو الحسن الأنباري، والتفت إلى ابن بقيه وهو مصلوب مقتول، فقال:

عُلُوِّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ      لَحَقُّ أَنْتَ إِخْدَى الْمُعْجَزَاتِ

فَحَوْلَ السُّلْبِيَّاتِ إِلَى إِيْجَابِيَّاتِ وَالْخَسَائِرِ إِلَى أَرْبَاحِ، فقال: حتى موتك مميز، فما مت مثل الناس وما دفنوك، أي إنك رفضت أن تُدْفَنَ إلا أن تكون علوًّا في الجو، مثل حياتك يوم أن كانت قوية مرتفعة عالية.

عُلُوِّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ      لَحَقُّ أَنْتَ إِخْدَى الْمُعْجَزَاتِ  
كَأَنَّ النَّاسَ - حَوْلَكَ - حِينَ قَامُوا      وَفُودَ نَسَاكَ أَيَّامَ الصَّلَاتِ

كأنهم يريدون أن يأخذوا الصلوات والأعطيات، مزدحمين، مثلما ازدحموا عند قصرك في حياتك.

كَأَنَّكَ وَقِفَ فِيهِمْ خَطِيبًا      وَهُمْ وَقَفُوا قِيَامًا لِلصَّلَاةِ

حَتَّى إِنْ يَدِيهِ لَمَا كَانَتَا مَسْمَرَتَيْنِ يَقُولُ: كأنك أنت الآن تُحْيِيْنَا وَتَحْتَضِنُنَا وترحّب بنا.

مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمْ؛ اِحْتِفَاءً      كَمَا دَهَمَا إِلَيْهِمْ بِالْهَبَاتِ

ويقول: هم ما دفنوك في التراب؛ لأن القبر لا يتسع لمكارمك، ولا لجودك.

وَلَمَّا ضَاقَ بَطْنُ الْأَرْضِ عَنْ أَنْ      يُوَارُوا فِيهِ تِلْكَ الْمَكْرُمَاتِ  
أَصَارُوا الْجَوْ قَبْرَكَ وَاسْتَعَاضُوا      عَنِ الْأَكْفَانِ كُؤُوبَ السَّافِيَّاتِ

يقول: الرياح صارت أكفانًا لك، وتُصَبِّحُ عليك، وتُتمسّي عليك بالخيرات، ثم

يقول:



لِعِظْمِكَ فِي النُّفُوسِ تَبِيَتْ تُرَعِي بِحُرَّاسٍ وَحُفَاظٍ تُقَاتِ

يقول: أنت عظيم مهيب؛ حتى وأنت ميت يخافونك والعسكر حولك. إذ كان العسكر حوله، حتى لا ينزلوا جثمانه من على الخشبة. فسبحان الله هؤلاء يحرسونك ويخافونك، حتى وأنت ميت.

وَتُوَقَّدُ حَوْلَكَ النَّيْرَانُ لِيَأْأَ كَذَلِكَ كُنْتَ أَيَّامَ الْحَيَاةِ  
وَمَا لَكَ تُرْبَةً فَأَقُولُ تُسْقَى لِأَنَّكَ نُسِبُ هَطْلِ الْهَاطَلَاتِ

يقول: لو أنهم دفنوك في التراب لقلت: سقى الله ترابك الغيث. كيف لا تربة توارى فيها؟! لأنك نصب هطل الهاطلات، اقتربت من السحاب.

عَلَيْكَ تَحِيَّةُ الرَّحْمَنِ تَغْنُو بِتَبْرِيكِ غَوَادِ رَائِحَاتِ

ثم يقول: والله إني مقصر في حقك. أو بعد هذه القصيدة تقصير يا ابن الأنباري؟

وَلَوْ أَنِّي اسْتَطَعْتُ قِيَامَ حَقِّ عَلَيْنَا بِأَلْحُقُوقِ السَّوَابِحَاتِ  
مَلَأْتُ الْأَرْضَ مِنْ نَظْمِ الْقَوَافِي وَنُحْتُ بِهَا خِلَافَ النَّائِحَاتِ

إلى آخرها، وهي اثنان وعشرون بيتاً، وما قيل مثلها في المرثي، وفر بعد هذه القصيدة إلى ملك حلب، وأرسل عضد الدولة للبحث عن ابن الأنباري، فما وجدوا غير هذه القصيدة، فقال: افروا علي القصيدة - وعضد الدولة هو القاتل - ففروا عليه هذه القصيدة، فسالت دموعه، فقال: والله الذي لا إله إلا هو لوددت أني قُتِلْتُ وَصَلِّبْتُ، وقيل في هذه القصيدة. لأنها مما يخلده الدهر قوة وبلاغة وأداءً، هذه القصيدة التي يسميها:

عُدُو فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ لِحَقِّ؛ أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجَزَاتِ

## عاشية الموت

وَأَعْظَمُ فَنِّ أَنْثَرُ فِيهِ الْعَرَبُ هُوَ فَنُّ الرِّثَاءِ، وَكَتَبُوا فِيهِ أَحْسَنَ شَيْءٍ، حَتَّى يَقُولُ  
جَرِيرٌ: لَوْ تَرَكْنِي الضَّرْدُ لَأَبْكَيْتُ الْعُجُوزَ عَلَى شَبَابِهَا.

فما بكى العرب، مثلما بكوا الإنسان إذا مات، وبكوا الشيب إذا فقدوا الشباب،  
أو بكوا الشباب إذا دلف عليهم الشيب.

وأبو تمام من المجيدين من شعراء العربية على الإطلاق، ذلك أن محمد  
بن حميد الطوسي البطل كان مجاهداً في عهد المعتصم، جاهد جهة الروم  
وحضر المعركة وقاد الجيش، وقال: احموا ظهري. فأخذ المسلمون يحمون ظهره  
وأخذ يستبسل في سبيل الله ويقاتل وتتكرر السيوف في يده، وفي الأخير أتته  
كتيبة وشاكوه بالرمح، ولم يفر ولو خطوة، فوقع أسيراً بعدما أصبحت ثيابه كلها  
حمراء من الدم، فأتى الخبر أبا تمام فقال قصيدته، حتى إن المعتصم لما سمع  
قصيدته قال: ما مات من قيلت فيه هذه القصيدة، وما زال حياً. فقال أبو تمام:

كَذَا فَلْيَجِلْ الخَطْبُ وَلْيَفْضَحِ الأَمْرُ      فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُنْدُ<sup>(١)</sup>  
تُوفِيَتِ الأَمَالُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ      وَأَصْبَحَ فِي شُغْلِ عَنِ السَّفَرِ السَّفَرُ

أي: لا تتأملوا شيئاً، فقد انتهت الطلبات؛ لأن محمداً كان شجاعاً، ولم  
يعد للمساافرين رغبة في أن يسافروا لأحد يطلبون الجود فقد توفي محمد، فلا  
تسافروا.

فَتَى كُلَّمَا فَاضَتْ عُيُونُ قَبِيلَةٍ      دَمًا ضَحِكَتْ عَنْهُ الأَحَادِيثُ وَالدِّكْرُ

ثم يقول في المعركة:

تَرَدَّى ثِيَابُ المَوْتِ حُمْرًا فَمَا أَتَى      لَهَا اللَّيْلُ إلا وَهِيَ مِنْ سُنْدُسٍ خَضْرُ

(١) قوله: كذا. أطلقها مدوية في الفضاء، تملأ الزمان والمكان.

أي: في الجنة. صارت حمراء بالدم وبعد ساعة مع الغروب وإذا هو في جنة النعيم، فنسأل الله أن يعفر لكل أموات المسلمين.

ذَوَى طَاهِرِ الْأَرْدَانِ لَمْ تَبْقَ بُقْعَةٌ      غَدَاةَ ذَوَى إِلَّا اشْتَهَتْ أَنْهَا قَبْرُ

يقول: لما ثوى كل بقعة وكل أرض تقول: يا ليته كُنْ فِيَّ. ثم يقول:

وَقَدْ كَانَ فَوْتُ الْمَوْتِ صَعْبًا فَرَدَّهُ      عَلَيْهِ حِضَاظُ الْمَرْ وَالْخُلُقُ الْوَعْرُ  
وَنَفْسٌ تَعَاثُ الذَّلَّ حَتَّى كَانَهُ      هُوَ الْكَفْرُ يَوْمَ الرَّوْعِ أَوْ دُونَهُ الْكَفْرُ  
فَأَثَبَتْ فِي مُسْتَنْقَعِ الْهُونِ رِجْلَهُ      وَقَالَ لَهَا: مِنْ تَحْتِ أَخْمَصِكَ الْحَشْرُ

أي: في المعركة. إلى أن يقول:

لَقَدْ مَاتَ بَيْنَ الْقَتْلِ وَالضَّرْبِ مِيتَةٌ      تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِذْ قَاتَهُ النَّصْرُ

هذه هي المراثي التي يقدمها العرب، حينما يرثون جواداً أو خيّراً، وهذا لا يحصل للإنسان إلا بعدما يقدم تاريخاً مجيداً من العمل الصالح، من الكرم ومن البر ومن العلم ومن نفع الآخرين، فيكتسب هذا الشاء، حتى إن المتنبي يقول:

ذِكْرُ الْفَتَى عُمُرُهُ الثَّانِي، وَحَاجَتُهُ      مَا قَاتَهُ وَخُضُوعُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

وهذا من أجمل ما قاله المتنبي في قصيدته التي يقول لأبي شجاع فيها:

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالٌ      فَلْيُسْعِدِ النَّطْقُ إِذْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ

ثم يقول في القصيدة:

اسْتَوْجِبَ الْحَمْدَ حَتَّى مَا لِمَفْتَحِرِ      فِي الْحَمْدِ حَاءٌ وَلَا مِيمٌ وَلَا دَالُ

فهنا يقول: إن قيمة الإنسان وعمره الثاني، كما يقول ابن دريد:

وَأَنْمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ      فَكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لِمَنْ وَعَى



أنت - أصلاً - بعد موتك حديث، والله ﷻ لما أهلك أهل سبأ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [سبأ: ١٩]. أصبح أحاديث في الأماكن، فإما أن تكون له أحوثة طيبة أو أحوثة سيئة - أجاركم الله - فحاول أن يكون لك ذكر حسن عند جيرانك وإخوانك وأصدقائك؛ لأنه كما في الحديث الشريف: «أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ». ومن شهد له المؤمنون بالخير فهو خَيْرٌ ومن شهدوا له بالسوء فهو سيئ، حتى إن إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]. هذا وهو نبي معصوم مرسل من عند الله ﷻ، يقول: يا رب، أسألك أن يكون لي ذكر حسن عند الناس، فيذكرونني بالخير. لأنهم إذا ذكروك بالخير دعوا لك واحتفوا بك وصار لك وفي ذريتك تاريخ ومجد، وهذا يكسبه الإنسان بعمله الصالح ويعلمه النافع ببذله وعطائه وأخلاقه ورعاية صدره، وبمروءته وبشيمه، وما ذلك على الله بعزيز إذا وفق الله ﷻ العبد إلى ذلك.

نعود إلى المرثي التي رثي بها الناس، وهي كثيرة - على كل حال - ومن بعض المقطوعات التي قيلت في الرثاء:

يَا لَيْتَهَا إِذْ قَدْتُ عَمْرًا بِخَارِجَةٍ      قَدْتُ عَلِيًّا بِمَنْ شَاءَتْ مِنَ الْبَشَرِ

ومثل سلم بن سعيد بن قتيبة أحد أحفاد قتيبة بن مسلم القائد المشهور حفيد قاضي خراسان، وكان كريماً جواداً منفقاً مبادراً، توفي فقال أحد الشعراء فيه:

مَضَى ابْنُ سَعِيدٍ حَيْثُ لَمْ يَبْقَ مَشْرِقٌ      وَلَا مَغْرِبٌ إِلَّا لَهُ فِيهِ مَادِحٌ  
وَمَا كُنْتُ أَذْرِي مَا فَوَاضِلَ كَفِّهِ      عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى غَيَّبْتَهُ الصَّحَاصِحُ  
وَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الْأَرْضِ ضَيْقٌ      وَقَدْ كَانَ - أَحْيَانًا - تَضِيقُ الصَّحَاصِحُ  
سَابِكِيكَ مَا فَاضَتْ دُمُوعِي فَإِنْ تَغَضُّ      فَحَسْبُكَ مِنِّي مَا تَجِنُّ الْجَوَانِحُ

إلى آخر ما قاله، وهي من أجمل ما قيل في هذا الأدب الذي ذكره هذا الشاعر المجيد من الشعراء.



ورثي الخلفاء والأئمة والعلماء، ومن أحسن ما قيل في ذلك الباب قيس بن عاصم سيد حلما العرب، الذي وفد على رسول الله ﷺ، وفيما يروى في السيرة أنه ﷺ لما قال: «أوصني يا رسول الله! قال: يا قيس، إن معك قريناً تدفن معه وأنت ميت، ويدفن معك وهو حي وهو عملك، يا قيس، إن مع العزة ذلة ومع الغنى فقر ومع القوة ضعف». لما توفي قيس يقول شاعر بني تميم:

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ - قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ -  
وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا  
تَحِيَّةً مَنْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ نِعْمَةً  
إِذَا زَارَ عَنْ قُرْبِ بِلَادِكَ سَلَمَا  
وَمَا كَانَ قَيْسٌ مُؤْتَهُ مَوْتَ وَاحِدٍ  
وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهْدَمَا

بالمناسبة لما توفي عبد الملك بن مروان حضر أبناؤه الأربعة: الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام. يقول ابن خلدون: «الناس على دين ملوكهم في الغالب وعلى دين خلفائهم». لأن مسيرة الوليد أنه كان معمارياً مهتماً بالعمار وهو الذي وسع المساجد، فاشتغل الناس بالعمار، وأما سليمان فكان مشتغلاً بالموائد، يحب الطعام والشراب كثيراً، فاشتغل الناس بالأكل والشراب، وأما هشام فكان صاحب دواب فعلا شعر الحيوانات والدواب في ذلك الوقت، وعمر بن عبد العزيز كان زاهداً ورعاً عالماً، فاشتغل الناس بالعلم وزهدوا بالدنيا، فالشاهد أنهم أتوا يدفنون عبد الملك، فقال هشام:

وَمَا كَانَ قَيْسٌ مُؤْتَهُ مَوْتَ وَاحِدٍ  
وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهْدَمَا

قال ابنه الوليد ولي العهد: كذبت - قاتلك الله - بل أبقى لك الله ما يسوؤك. يعني تعريضاً بأخيه ولي العهد. فقصدي من هذا أن المراثي قد تقدم في سجل الأموات، متى ما أحسن هذا الميت عمله، وبالمقابل فمنهم من يُسب وهو ميت، ولذلك ينبغي أن يكون الأدب رسالة حق، وأن يُقدم، لا رسالة لكسب عرض من الدنيا، ولا يكون فيه تزوير شهادة فيها مقت، إنما يكون الإنسان صادقاً في شعره

## عاشية المهوت

صادقاً في قوله، صادقاً في كلامه، أذكر أن نزار قباني الشاعر المعاصر قال يرثي أحد الزعماء لما مات، فقال فيه قصيدة من أجمل ما قيل:

فَبُعْدَكَ لَوْعَةٌ وَرَوْضُكَ أَخْضَرُ      وَذِكْرَكَ عُصْفُورٌ مِنَ الْقَلْبِ يَنْقُرُ  
مَلَانًا لَكَ الْأَقْدَاخَ - يَا مَنْ بَحْبِهِ -      سَكِرْنَا كَمَا الصُّوفِي بِالْحُبِّ يَسْكُرُ  
شَهِيدْنَا وَفَكَّرْنَا وَشَابَتْ دُمُوعُنَا      وَشَاخَتْ لِيَالِينَا وَمَا كُنْتَ تَحْضُرُ  
تَأَخَّرْتَ عَنِ وَعْدِ الْهُوَى - يَا حَبِيبِنَا -      وَمَا كُنْتَ عَنِ وَعْدِ الْهُوَى تَتَأَخَّرُ  
أُحِبُّكَ لَا تَفْسِيرَ عِنْدِي لِصَبُوتِي      يُفْسِرُ مَاذَا وَالْهُوَى لَا يُفْسِرُ



oboeikendi.com

## شعر السجوة

أقدار من الله ﷻ يُقَدِّرُهَا عَلَى بَعْضِ النَّاسِ،  
فِيَدْخُلُونَ السَّجْنَ، وَالسَّجْنَ بَيْتَ الْوَحْدَةِ، فَالْإِنْسَانُ  
فِي السَّجْنَ لَا هُوَ مَيِّتٌ فَيُنْعَى وَلَا هُوَ حَيٌّ فَيُرْجَى، قَدْ  
دَخَلَهُ زَعَمَاءٌ وَعُلَمَاءٌ وَأَدْبَاءٌ وَحُكَمَاءٌ، كُلُّ عِبْرٍ بِطَرِيقَتِهِ،  
وَأَفْضَلُ مَنْ دَخَلَهُ يُوسُفُ ﷺ فَإِنَّهُ مِنْ شِدَّةِ الْكَرْبِ فِي  
السَّجْنَ يَقُولُ لِمَنْ مَعَهُ: ﴿أَذْكُرْفِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾  
[يوسف: ٤٢]، أَي: لَا تَنْسِنَا مِنَ الشَّفَاعَةِ عِنْدَ الْمَلِكِ؛ فَإِنَّا  
تَعَبْنَا مِنَ السَّجْنَ. هَذَا هُوَ مَعْنَى الْكَلَامِ، فَهَذَا مِنْ شِدَّةِ  
السَّجْنَ، وَالرَّسُولُ ﷺ هَدَّدَ بِهِ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿لِيُنَبِّئُوكَ  
أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وَيُنَبِّئُوكَ، أَي:  
يَسْجَنُوكَ.

وأذكر أن البرامكة ممن نكب نكبة ساحقة ماحقة في التاريخ العباسي، لما عدا عليهم هارون الرشيد - سامخه الله - ووضعهم في السجن، حتى يقول يحيى ابن خالد البرمكي (أحدهم) لما رأى السجن واقفاً عند الباب، وكانوا قبل في قصور وفي نعيم، وكانت الدنيا تحييهم، وكانت الجماهير تحتشد عندهم، وكان الذهب يُصب على أقدامهم، ثم وُضع في غرفة مغلقة، فقال يتمثل بهذه الأبيات:

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنْ أَهْلِهَا	فَلَسْنَا مِنَ الأَمْوَاتِ فِيهَا وَلَا الأَحْيَا
إِذَا جَاءَنَا السَّجَانُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ	عَجِبْنَا وَقُلْنَا: جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا
وَنَفْرَحُ بِالرُّؤْيَا فَجُلُّ حَدِيثِنَا	إِذَا مَا تَحَدَّثْنَا الْحَدِيثُ عَنِ الرُّؤْيَا
فَإِنْ حَسُنَتْ كَانَتْ بَطِينًا مَجِيئُهَا	وَإِنْ قَبُحَتْ لَمْ تَنْتَظِرْ وَأَتَتْ سَعِيَا

فليس عندهم وكالات أنباء ولا مجلات ولا صحف ولا صديق ولا زيارة.

فهذا من التشاؤم، ومثل هذا التشاؤم ذكر الجاحظ في كتابه (البغال) أن أحد الأمراء هناك أهل بغداد، فقالوا: هنيئاً لك أنك في العراق أميراً. فقال: أنتم لا تعرفون الإمارة؛ هي صولات وجولات وفزعات، فإذا أتى البغل يرسله الخليفة بخبر، إما بعزل أو بنكال رجف قلبي حتى تبلغ القلوب الحناجر. فيقول هوفي القصيدة:

إِذَا مَا بَرِيدُ الْحَيِّ أَقْبَلَ نَحْوَنَا	لِبَعْضِ دَوَاهِي الدَّهْرِ سَارَ فَأَسْرَعَا
فَإِنْ كَانَ شَرًّا سَارَ يَوْمًا وَلَيْلَةً	وَإِنْ كَانَ خَيْرًا قَصِدَ السَّيْرِ أَرْبَعَا

ومثل ذلك الزبيري في اليمن؛ فإنه سُجِنَ يوم الثورة على إمام اليمن وخرج من السجن إلى باكستان، خرج منتصراً؛ فالزبيري أديب مسلم صاحب رسالة، وله كلمات قوية في الأدب والشعر، حتى إنه يقول:

خَرَجْنَا مِنَ السَّجْنِ شَمَّ الأَنْوْفِ	كَمَا تَخْرُجُ الأَسَدُ مِنَ غَابِهَا
نَمُرُّ عَلَى شَفَرَاتِ السُّيُوفِ	وَنَأْتِي المَنْيَةَ مِنَ بَابِهَا

## شعر السجون

خرج مباشرة وركب من باب المنذب؛ حتى لا يقبض عليه جنود الإمام وحراسه مرة ثانية، ثم وصل إلى باكستان، وقال في إذاعة باكستان يخاطب الشعب اليمني:

الشَّاعِرِيَّةُ فِي رَوَائِعِ سِحْرِهَا	أَنْتِ الْبَدِي سَوِيَّتَهَا وَصَنَعْتَهَا
أَنْتِ الْبَدِي بِسَنَّاكَ قَدْ عَطَّرْتَهَا	وَأَشَعَّتَهَا بَيْنَ الْوَرَى وَأَدَعَّتَهَا
أَبْعَدْتَنِي عَنْ أُمَّةٍ أَنَا صَوْتُهَا الْ	عَالِي فَلَوْ ضَيَّعْتَنِي ضَيَّعْتَهَا
مَا قَالَ قَوْمِي: آه! إِلَّا جِئْتَنِي	وَكُوَيْتَ أَحْشَائِي بِهَا وَلَسَعْتَهَا
عَدْبْتَنِي وَصَهْرْتَنِي لِيَقُولَ عَنِّي	لَكَ النَّاسُ هَدْيَ آيَةٍ أَبْدَعْتَهَا

وسُجن أبو العتاهية؛ ذلك أنه تاب إلى الله من أن يقول الشعر، فحلف المهدي الخليفة العباسي: لتشعرن. فقال: والله ما أقول الشعر. فقال: والله لتقولن الشعر. وذلك خليفة وملك، يقول ابن الوردي في مثله:

أَخَذَ السُّلْطَانُ وَأَخَذَ بِطُشْبُهُ لَا تُعَانِدُ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَلْ

فقال: احبسوه. فقال: فدخلت الحبس فدهشت من خوف الحبس. ووجد شيخاً كبيراً في قصة طويلة، يقول في الحبس - وهي رسالة إلى الخليفة -:

أَمَا - وَاللَّهِ - إِنَّ الظُّلْمَ سُؤْمٌ وَمَا زَالَ الْمُسِيءُ هُوَ الظُّلْمُ  
إِلَى الدِّيَانِ يَوْمَ الْحَشْرِ نَمُضِي وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الخُصُومُ

وهذا يذكّرني بامرأة اعتدى عليها ابن الفرات الوزير العباسي؛ أخذ مزرعتها وأخذ بيبتها ظلماً وبُهتاناً فشكته إلى الله، فقال: ادعي في الثلث الأخير؛ فقد سمعنا أن الثلث الأخير تُستجاب فيه الدعوة، استهزاءً وسخرية، فأخذت هي الثلث الأخير شهراً، فسَلَطَ اللهُ عليه الخليفة، فقطع يده وأهانته وعزله، ومررت به وهو يُجلد بالسياط، فقالت: جزاك الله خيراً؛ جربنا الثلث الأخير ووجدناه أحسن ما يكون والدليل كما ترى. أصبح تحت السياط، ثم قالت:

إِذَا جَارَ الْوَزِيرُ وَكَاتِبَاهُ      وَقَاضِيَ الْأَرْضِ أَجْحَفَ فِي الْقَضَاءِ  
فَوَيْلٌ لَّهُمْ وَيْلٌ لَّهُمْ وَيْلٌ      لِقَاضِي الْأَرْضِ مِنْ قَاضِي السَّمَاءِ

فأبو العتاهية سُجِنَ، يقول: انتظر! فسوف تأتيك الأمور. ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. فالأيام كُؤَلٌ:

هِيَ الْآيَةُ وَالْغَيْرُ      وَأَمْرُ اللَّهِ يُنْتَظَرُ  
أَتِيَّاسٌ أَنْ تَرَى فَرَجًا ۙ      فَأَيُّنَ اللَّهُ وَالْقَدْرُ ۙ

فهو عز وجل سريع الفرج. وقد أنشدوا في ذلك كثيراً.

لكن مقصودي السجن، وما قال الشعراء فيه، وهو شعر السجون، وكيف تحدثوا في تلك المسألة التي يحل بها الإنسان؛ لأن عقارب الساعة تتوقف في السجن، وكأن الزمن يتوقف، وما ترى إلا الجدران أربعة، تنتهي أخبار الأهل والأسرة والأمال، تصبح الحياة ساكنة صامتة.

فهذا ابن الزبير سجن ابن الحنفية، وابن الزبير كان يُسمى: العائذ بالبيت. عائذ بالله عائذ بالبيت العتيق؛ لأنه تحصن فيه من الحجّاج، حين نوى قتله في الفتنة المعروفة.

ابن الزبير سجن ابن الحنفية في سجن عارم، وسجن عارم هو غرفة اتخذها عبد الرحمن بن عوف سجناً لمولى له، سجنه أسبوعين في الغرفة فسُمِّي سجن عارم.

المهم أن ابن الزبير سجن ابن الحنفية في هذا السجن، فقال كثير عزة في ذلك، مخاطباً ابن الزبير:

تُحَدِّثُ مَنْ لَاقَيْتَ أَنَّكَ عَائِدٌ      بَلِ الْعَائِدُ الْمَظْلُومُ فِي سِجْنِ عَارِمِ

## شعر السجون

يقول لابن الزبير: لا تغتر! لأنك سجت محمد بن الحنفية (ابن علي)؛ كيف تحدث الناس أنك عائد بالبيت من الحجّاج، مع أن العائد هو ابن الحنفية (ابن علي).

وَمَا هَذِهِ الدُّنْيَا جَمَالٌ لِأَهْلِهَا  
وَمَا الشَّرُّ فِي الدُّنْيَا بِضْرَبَةٍ لَازِمٍ  
لِكُلِّ زَمَانٍ دَوْلَةٌ ثُمَّ تَنْتَهِي  
وَيُصْبِحُ مَا لَاقَيْتَ حُلْمًا لِحَالِمٍ

والآن ذهبوا إلى الواحد الأحد؛ الساجن والمسجون والباطح والميطوح والجالد والمجلود والقاتل والمقتول، حتى يحكم بينهم ﷺ في محكمة العدل الإلهية، يوم لا حاكم إلا الله، ولا قاضي إلا الله ﷻ.

ومن الملوك الأدباء المعتمد بن عباد صاحب الأدب وصاحب البيان، صاحب الشعر، صاحب إقبال الدولة، أخذه ابن تاشفين بعدما غلب عليه وسمله وسجنه في سجن أغمات، حتى إنه في أيام أبهة الملك كانت زوجته نذرت أن تمشي على الكافور، فأمر أن يُطَيَّنَ لها طين ويُنبت بالكافور والمسك فتمشي عليه، وذلك من الأبهة والترف، وأخذ فيما بعد وسُجن في سجن، وأتت بناته يوم العيد، وقد أصبحن فقيرات حسيرات ينسجن بالأجرة، فأتين يزرنه في السجن - وهو الملك نفسه والآن مسجون - ورأى من شق الباب وإذا ببناته فقيرات حسيرات حافيات، فكاد قلبه ينخلع، وقال قصيدة من ضمنها ما يخاطب فيه نفسه:

فِيمَا مَضَى كُنْتُ بِالْأَعْيَادِ مَسْرُورًا  
فَرَارَكَ الْعَيْدُ فِي أَعْمَاتِ مَأْسُورًا  
تَرَى بِنَاتِكَ فِي الْأَطْمَارِ بِالْيَةِ  
يَغْرُلْنَ لِلنَّاسِ مَا يَمْلِكُنَّ قِطْمِيرًا  
يَمَشِينَ فِي الطِّينِ وَالْأَقْدَامُ حَافِيَةٌ  
كَأَنَّهَا لَمْ تَطَأْ مِسْكَاً وَكَافُورًا

وهذه سنة الله ﷻ في تغير الأحوال، وخاصة على أهل الظلم، فإن الظلم - كما يقول ابن خلدون - مؤذن بخراب العمران وهلاك الدول، انظر لهذا كيف تحول الحال إلى ذلك، وهذا حال الدنيا، حتى إن الحافظ ابن كثير ذكر الخلفاء؛ فتراك

تجدد الأمين يُقتل ويقتله المأمون، وابن المعتز يُقتال في ليلة، والقاهر الخليفة العباسي تُسمل عيناه فيصبح أعمى، ويُضرب أحدهم بالدبابيس ويُقتل الوزراء، مثل: ابن الجراح، وابن أبي إسرائيل، وابن بقية الذي صُلب وقال فيه الأنباري: علوُّ في الحياة وفي الممات. قال ابن كثير: وهذه هي حال الدنيا وتقلبها بأهلها. كما قال الأول:

دَارُ مَتَى مَا أَضْحَكَتْ فِي يَوْمِهَا      أَبْكَتْ غَدًا قُبْحًا لَهَا مِنْ دَارِ

ولذلك، فإن أحد الشعراء لما رثى ابنه يقول:

طُبِعَتْ عَلَى كَدْرِ<sup>(١)</sup> وَأَنْتِ تُرِيدُهَا      صَفْوًا مِنَ الْأَقْدَارِ وَالْأَكْدَارِ  
وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ غَيْرَ طِبَاعِهَا      مُتَطَلِّبُ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارِ

فليس هناك ما يمكن أن يعود له الإنسان إلا الإيمان بالله **ﷻ**، إلا الركون له **ﷻ** والتوكل عليه، فهذه من أخبار السجن.

وبعضهم رحب بالسجن وجعله نعمة وحمد الله على ذلك، حتى إن الإمام المروزي سُجِنَ، فقالوا له: ما أخبارك في السجن؟ قال: سقطت عني الحقوق - أي: حقوق الإخوان، من الزيارة والعيادة والهدية، فلا يُطالبك أحد - ورأيت النواهب ومررت بي العجائب، وخبرت التجارب، وذقت المصائب.

حتى إن بعضهم يقول: «نعم السجن؛ فإنك فيه تراجع نفسك، وينكسر فيه ظهر عَجَبِكَ، ويذهب كِبَرُكَ، وتتذكر بيت الوحدة وهو بيت القبر».

لأن السجن أشبه شيء بالقبر، فهو حسن لمن وجهه في ذلك، وممن سُجِنَ ابن تيمية شيخ الإسلام الحافظ أبو العباس، فإنه لما دخله اشتغل في المسائل الشرعية، ووضعوا دونه الباب، فقال: «فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بَسُورًا لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ

(١) أي: الدنيا.



وظَهْرُهُ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ ﴿ [الحديد: ١٣]. ثم قال: «ماذا يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري أتى سرت فهي معي؛ أنا قتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة وسجني خلوة». ثم قال: «المأسور من أسرته هواه». أي: إن المسجون من سجنه هواه، وليس المسجون من سجن بين الجدران، فهو قد حوّل السجن إلى مدرسة وإلى جامعة للتأليف والتسييح والعبادة والذكر ومراجعة القرآن وتدبر الآيات البيّنات، وكان يكتب الرسائل ويرسلها من السجن إلى الآفاق، ويفتي المسلمين، حتى إن فتاويه جاءت في ثلاثين مجلداً أو أكثر، كُتِبَتْ في السجن، فأرسل علماً كثيراً.

ويقولون: إن أحد الشعراء الشيعيين سجنه أحد الأمراء، فقال:

أَنَا يَا كَرِي مِثْلِكَ حِبُّ الْعُلَا شَجَعَانِ      يَرَاهِمُ ابْرَأْسِهِ مَا يَخَافُ الْيَمَانِيَّةَ  
أَنَا بَعَثْتُ رَأْسِي مِنْ أَمْحَمْدٍ وَلَدَعْدُنَا      قَبِضْتُ التَّمَنُّ وَاللَّهُ يَشْهَدُ عَلَى النَّبِيَّةِ

فالناس مجمعون على أن السجن فيه هذا وذاك، فمن تقبل النكبة، مثل السجن بنفس ضيقة وبتشاؤم ضاقت عليه الدنيا وشعر أنه في أضيق من ثقب الإبرة، وأخذ العويل وأخذ الانهزام والإحياط والهم والغم، ومن أخذ السجن على أنه بيت للعبادة وبيت للخلوة وبيت لمراجعة النفس كان بعكس ذلك.

حتى إن الإمام أحمد - لما سُجِنَ (وعمره ٣٦ سنة) - جعلها لمراجعة القرآن وذكره صلى الله عليه وسلم وتلاوة كتابه وقيام الليل، حتى يقول الإمام أحمد: إنه لما سُجِنَ، سُجِنَ معه رجل عظيم اسمه عجيف. قال: يا إمام أحمد، فيم سُجِنْتَ؟ قال: في السنة؛ أقول لهم: القرآن غير مخلوق. فيقولون: مخلوق. قال: اصبر يا أحمد، أنا سُجِنْتُ في شرب الخمر سبع مرات. يشرب ويُسجن ويبطحوه ويضربونه ويرجع ويشرب، فكان صامداً إلى آخر قطرة، قال الإمام أحمد: فشدُّ قلبي. أي: قواني. قال: ولما خرجت من السجن ذهبوا بي. ينقلونه إلى سجن آخر فلقه أعرابي، فقال: أنت

أبو عبد الله؟ قال: نعم. قال: يا أبا عبد الله، اصبر؛ إنما تقتل بالسيف من هنا، وتدخل الجنة من هنا. قال: فربط على قلبي.

بعض الكلمات مؤثرة، يقول أبو العتاهية: لما سُجِّتَ فِي السَّجْنِ سَلِمْتَ عَلَى رَجُلٍ شَيْخٍ كَبِيرٍ فِي السَّنِّ، أَبْيَضَ الثَّوْبَ أَبْيَضَ اللَّحْيَةَ، قُلْتَ: فِيمَ سُجِّتَ أَنْتَ؟ قَالَ: فِيمَ سُجِّتَ يَا أبا العتاهية؟ قَالَ: قُلْتَ: حَلَفْتَ أَلَا أَقُولُ شِعْرًا وَحَلَفَ الْمَهْدِيُّ الْخَلِيفَةَ أَنْ أَقُولَ الشَّعْرَ. قَالَ: سَوْفَ تَقُولُ الشَّعْرَ وَتَخْرُجُ. قُلْتَ: وَأَنْتَ، فِيمَ سُجِّتَ؟ قَالَ: أَخْفَيْتَ فَلَانَ بْنِ فَلَانَ بْنِ عَلِيِّ أَبِي طَالِبٍ، طَالِيُوهُ بِالْخِلَافَةِ مِنْ بَيْتِ النَّبِوَةِ وَطَلَبْنِي الْخَلِيفَةُ الْمَهْدِيُّ أَنْ أَظْهَرَهُ، فَحَلَفْتَ بِاللَّهِ مَا أَخْبِرُ بِهِ. قُلْتَ: أَنْتَ مَا تُخْبِرُ بِهِ؟ قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَخْبِرُ بِهِ وَلَوْ قَتَلْتُونِي، وَاللَّهِ لَوْ كَانَ بَيْنَ جَلْدِي وَعَظْمِي مَا أَخْبِرْتُ بِهِ. قُلْتَ: وَكَيْفَ؟ قَالَ: آتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَخَصَمِي مُحَمَّدٌ ﷺ، لَا بِلِ آتَى وَخَصَمِي الْمَهْدِيُّ. قُلْتَ: لِمَا قُلْتَ الْبَيْتَيْنِ:

هِيَ الْأَيْسَاءُ وَالْغَيْرُ وَأُمُّرُ اللَّهِ يُنْتَظَرُ  
أَتِيَأْسُ أَنْ تَرَى فَرَجًا؟ فَأَيُّنَ اللَّهِ وَالْقَدْرُ؟

قال: قم بنا نصل ركعتين. قال: والله ما انتهينا من الركعتين وسلمنا إلا والباب يفتح، وإذا العسكر يقولون: المهدي يريدكم. قال: فدخلنا عليه بالدور. فدخل الشيخ، فقال له المهدي: تخبر بفلان عندك؟ قال: والله لو كان بين عظمي وجلدي ما أخبرت به. قال: وكيف؟ قال: تأتي خصمي أنت، ولا يأتي خصمي محمد ﷺ. قال: فقتله. واني أرى الرأس مفصولاً عن العتة. قال: وأنت يا أبا العتاهية؟ قال: أنا أنشد الشعر.

فأنشد الشعر وانطلق، وهو يقول:

نُحِّ عَلَى نَفْسِكَ - يَا مَسْدُ  
كَيْفَ - إِنْ كُنْتَ تَنْوُحُ  
لَتَمُوتَنَّ وَإِنْ عُمُ -  
مَمَرْتَ مَا عَمَّرَنُوهُ

## شعر السجون

تَطَّافَ اللَّهُ بِنَنَا إِنْ      نَ الْخَطَايَا لَا تَفُوحُ  
كُلُّ بَطْطَاحٍ مِنَ النَّاسِ      سِ لَّهُ يَوْمَ بَطُوحِ

ومات بعدها المهدي، وكان هو يُعرض به في القصيدة، فيقول: لو بطحتنا  
فسيأتيك يوم تَبَطَّحُ فيه.

هذه رسائل أدبية من السجن، وهناك كتاب (أدب السجون) ممن سجن  
حتى من الشعراء العالميين ومن الزعماء والعلماء والمصلحين والناجين،  
وغيرهم من العصاة- نسأل الله العافية- فهو تربية وتهذيب وكفارة وردع، وقد  
ذُكِرَ السجن في القرآن في قصة يوسف، وفي قوله تعالى: ﴿لِيُثَبِّتُكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ  
أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾. «وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَسْجُونِينَ» أي: إنا نسجناك فنحبس دعوتك عن  
الناس. فالله ~~يريد~~ المسؤول وحده أن يوقفنا وإياكم وأن يجعلنا من المقبولين  
عنده، وأن يزيدنا وإياكم رشداً وسداداً.

وبالمناسبة، فقد قرأت كتاب (رحلتي الطويلة للحرية) لـ (نيلسن مانديلا)  
الذي سُجِنَ (٢٧ سنة) وقد صور غرفته التي كان مسجوناً فيها وسريته، وصمد  
وكان على شراب الذرة، حتى ألف هذا التراث وبنى هذا المجد.



oboeikendi.com

## الشعر والكرم

عند الترمذي: «السُّخِيُّ قَرِيبٌ مِّنَ  
اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِّنَ النَّاسِ،  
وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِّنَ اللَّهِ بَعِيدٌ مِّنَ الْجَنَّةِ  
بَعِيدٌ مِّنَ النَّاسِ». وقد ضرب العرب أروع  
الأمثلة في الكرم، سواء قبل الإسلام أم بعد  
الإسلام، قبل الإسلام فيه الرياء والسمعة  
والشهرة وحب الثناء، وبعد الإسلام طلب  
الأجر من الله ﷻ وإسداء الخير والنفع  
للناس، لكن الكريم عيوبه تُغطى.

يُغَطِّي بِالسَّمَاخَةِ كُلَّ عَيْبٍ وَكَمْ عَيْبٍ يُغَطِّيهِ السُّخَاءُ

ومن أكرمهم على الإطلاق قبل الإسلام حاتم الطائي، وكان في جبال أجا وسلمى في حائل، حتى يقول لغلامه في ظلمة الليل لما اشتد برد الصحراء:

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قَرٌّ إِذَا أَتَى ضَيْفٌ فَأَنْتَ حُرٌّ  
وَالْبُرْدُ - يَا فُلَانُ - بَرْدٌ صِرٌّ

فيقول: تعال بضيف وأنا أعتقك. أي كرم هذا؟! وأي جود لو كان في الإسلام؟!

وفي الحماسة لأبي تمام بيتان من الشعر من أجمل ما قيل على الإطلاق، هما لحاتم الطائي يصف نفسه بالكرم والبذل، وأنه يحب الخير، وأنه يؤثر الآخرين على نفسه، يقول:

أَمَّا وَالَّذِي لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُهُ وَيُحْيِي الْعِظَامَ الْبَيْضَ وَهِيَ رَمِيمٌ  
لَقَدْ كُنْتُ أَطْوِي الْبُطْنَ وَالزَّادُ يُشْتَهَى مَخَافَةَ يَوْمٍ أَنْ يُقَالَ: لَتَيْمٌ

وله في ذلك أمثال، لكن معنا هذان البيتان اللذان يقول فيهما ما معناه: والله الذي لا إله إلا هو إن الله ليعلم أنني أجوع أنا وأنحمل الجوع وأذوق مرارة الجوع وإنني أؤثر غيري؛ جاري وضيبي؛ حتى لا يقال: إنني بخيل يوماً ما من الأيام. حتى إنه يعطيك درساً في الكرم في الرحلة، والسيارة التي تشارك غيرك بأن يركب معك، فيقول:

إِذَا كُنْتَ رِيًّا لِلْقُلُوصِ (١) فَلَا تَدْعُ رَفِيقَكَ يَمْشِي خَلْفَهَا غَيْرَ رَاكِبٍ  
أَنْحَهَا فَأَرْكِبْهُ، فَإِنْ حَمَلْتُكُمْ فَذَاكَ وَإِنْ كَانَ الْعِقَابُ فَعَاقِبْ

(١) القلوص: الناقة.

يقول: أنخ الناقة؛ فإن تحمل اثنين فاجعله معك، وإن كانت لا تستطيع فاركب مرة وتنزل أنت ويركب هو، وهكذا.

هذا هو الكرم والجود الذي ضُرب مثلاً لحاتم وأمثاله، حتى إن بعض الصحابة رضي الله عنهم والتابعين اجتمعوا عند الحجر الأسود في ليلة ظلماء يسمررون في عهد عبد الله بن الزبير والحسين بن علي وابن عباس رضي الله عنهم فقالوا: «مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ الْآنَ؟». فاختلفوا. وقيل: إن ابن عمر «كان جالساً وابن الزبير وابن عباس رضي الله عنهم، قال واحد منهم: أكرمهم عبد الله بن جعفر الطيار. وقال الثاني: عرابية الأوسي أكرم. وقال الثالث: بل قيس بن سعد بن عبادة أكرم. قال كبيرهم من شيوخ قريش: كلُّ يذهب إلى صاحبه ويأتيه بهيئة فقير ومسكين، فينظر ما يعطيه، ونأتي ونلتقي بعد مدة في هذا المكان ونرى أيهم أفضل. فذهب الذي يريد عبد الله بن جعفر فلبس أسماً بالية وملابس ممزقة، وتعرض له وإذا عبد الله بن جعفر خارج من المدينة يريد دمشق، فلقيه في الطريق، قال: من أنت؟ قال: رجل مسكين انقطعت بي الحبال وقصدت الله، ثم قصدتك. وكان عبد الله بن جعفر على فرس ومعه سيف وأدواته ودراهم فقال: أنا خرجت من المدينة من ليلتين، ولو كنت زرتني في المدينة لوجدت ما يسرك، لكن الآن خذ الفرس بما عليه بدراهمه وهذا السيف، وأنا سوف أنتظر تحت هذه الشجرة والناس يعرفونني وسوف يمر الركب. قال: كيف أخذ؟ قال: والله لتأخذن؛ أنا من قوم إذا وهبنا لا نعود في الهبة، وسوف يمر السيارة والمسافرون ويعرفونني وأنتقل معهم. فأخذ الرجل الفرس والسيف وما عليه من شيء ومن الدراهم ومشى، وأما الذي قصد قيس بن سعد بن عبادة فكان في المدينة وأبوه سعد ابن عبادة صحابي رضي الله عنه، وقيس هذا من أكرم الناس وكان قائداً لعلي رضي الله عنه على مصر، فأتى الرجل في الظهيرة وهو نائم فطرق الباب، فخرجت الجارية فقالت: سيدي نائم، ولكن هذه ألف دينار، ولا توقظ سيدي. فذهب.

هذه جارية فكيف إذا كان هو؟

ثم ذهب النبي أراد عرابة الأوسي فوجده شيخاً كبيراً أعمى، ذهب إلى المسجد، يعتمد على اثنين من الموالي من خدامه، قال: أنا قصدتك بعد الله وأنا منقطع ولا مال لي. فقال عرابة الأوسي - وهو أنصاري أصلاً -: والله إن الحاجات ما أبقت لي شيئاً إلا هذين الخادمين، فخذهما لك، فقد تخلصت منهما. قال: فأخذتهما، فوالله إنه تركهما وإنه ليلتمس الطريق ويعتمد على الجدران، حتى وصل إلى المسجد.

فعادوا إلى الصحابة والتابعين رضي الله عنهم فأخبروهم بذلك فقالوا: عبد الله بن جعفر كريم ومن كرمه أنه أعطى وهو مسافر منقطع، وقيس بن سعد كريم والدليل أن جاريته أعطت فكيف لو قام هو؟ لكن أكرمهم عرابة الأوسي؛ لأنه مدين وليس عنده إلا هذان الخادمان، ومع ذلك أعطاهما وبقي يتلمس الجدار وهو أعمى حتى وصل إلى المسجد، فيقول الشاعر:

إِذَا مَا رَأَيْتَ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ      تَلَقَّاهَا عُرَابِيَةٌ بِالْيَمِينِ  
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ      لَجَادَ بِهَا فَلَيْتَقِ اللَّهَ سَائِلُهُ  
حتى إن أبا تمام يقول:

وعلى هذا البحر قصيدة لزهير يقول فيها:

هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَيِّ النَّوَاحِي أَتَيْتُهُ      فَلَجَّتْهُ الْمَعْرُوفُ وَالْبِرُّ سَاحِلُهُ  
ثم يقول:  
تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوِ انَّهُ      أَرَادَ انْقِبَاضاً لِانْقِطَعْنَ أَنْامِلُهُ

وكثير من الناس يخلطون بين أبيات زهير، وبين أبيات أبي تمام، وبين أبيات

مروان بن حفصة:

## الشعر والكرم

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ لَجَادَ بِهَا فَلَيْتَقِ اللَّهَ سَائِدُهُ

لكن من أحسن ما رأيت في الكرم بيتاً فريداً؛ حتى إنه عجب منه الرمخشري، وهو للحطيئة يمدح كريماً:

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشَوْا إِلَيَّ ضَوْءِ ذَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرَ مُوقِدِ

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه - لما سمع هذا البيت - : «هَذَا لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلرُّسُولِ ﷺ». فإنه أكرم الناس.

وفي الصحيح عن علي وابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ «كَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَيَدَارِسُهُ الْقُرْآنَ». فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة، فهو ﷺ الأحق بقول الشاعر:

مَا قَالُ: لَا قَطُّ إِلَّا فِي تَشْهِيدِهِ لَوْلَا التَّشْهِيدُ كَانَتْ لَأَوْهُ نَعْمُ

وهذا البيت للفرزدق من قصيدة قالها في علي بن الحسين زين العابدين، وكان زين العابدين من أجمل الناس وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله ﷺ، أبوه الحسين الشهيد رضي الله عنه، أتى يطوف بالبيت والبيت مزدحم، ودخل هشام بن عبد الملك وهو خليفة، وكان في دمشق، أتى يطوف بالبيت والناس مزدحمون، أتى هشام بحرسه وبموكبه وحاشيته وجلس وقال: أعطوني ما أجلس عليه. ينتظر حتى يخف الزحام فجلس، وأما زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب «فأتى بعضاً من خيزران غير محرّم، بل يطوف وريحه مسك ووجهه كالقمر ليلة أربعة عشر، فلما رآه الناس فسحوا له الطريق عند المطاف، وأخذوا يوسعون له، وأهل الشام لا يعرفون زين العابدين، وهشام بن عبد الملك يعرف من هو، لكن الحسد أخذ منه مأخذه، فقال هشام: من هذا الذي يفتح له الناس الطريق ويكبرون لما دخل؟ والفرزدق موجود فقام وقال:

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَائِفَهُ  
 هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ  
 هَذَا ابْنُ فَاطِمَةَ إِنْ كُنْتَ جَاهِلُهُ  
 وَلَيْسَ قَوْلُكَ: مَنْ هَذَا؟ بِضَائِرِهِ  
 يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ  
 يَكَادُ يَمْسِكُهُ عِرْفَانُ رَاحَتِهِ  
 فِي كَفِّهِ خَيْرُ زُرَّانٍ رِيحُهُ عَبِقُ  
 وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ  
 هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ  
 بِجَدِّهِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ قَدْ خْتَمُوا  
 الْعُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرَتْ وَالْعَجَمُ  
 فَلَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ  
 رُكْنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ  
 مِنْ كَفِّ أُرْوَعٍ فِي عَرْنِينِهِ شَمَمُ

إلى أن ختم القصيدة فسجنه هشام بن عبد الملك ستة أشهر في سبيل الله،

فالشاهد:

مَا قَالَ: لَا قَطَّ إِلَّا فِي تَشْهُدِهِ      لَوْلَا التَّشْهُدُ كَانَتْ لَأَوْهُ نَعَمُ

فيقول: إنه لا يعرف كلمة (لا). إلا إذا قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. فالله عز وجل كان يجعل في بعض الناس ما الله به عليم، حتى إن الناس مجمعون على حب الكريم وعلى مدحه سواء بالعامي أو بالفصيح، وأذكر أننا ذهبنا إلى أناس من الكرماء، فطلبوا قصيدة من شعري الشعبي؛ لأن الجوجو يستحق شيئاً من الشعبي؛ فهم يفهمونه أكثر من العربي الفصيح، وعندما أكرمونا بما وجدنا من حسن الضيافة والترتيب والوجوه النيرة والمسفرة والابتسامات والترحيب والدلال المهيبة والبخور والإكرام قلت:

بِسْمِ اللَّهِ قُدَّامَ بَدْءِ الْحَرْفِ مِيلَهُ وَاعْتِدَالَهُ

وَالصَّلَاةَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَالرِّضَا لِأَنْصَارِ دِينِهِ

يَا سَلَامَ اللَّهِ عَلَى الْفُرْسَانِ فِي بَيْتِ الشُّكَاةِ

تَعْرِفُ الرِّجَالَ مِنْ لَمَحَةِ عِيُونِهِ فِي جَبِينِهِ



## الشعر و الكرم

الْوُجُوهُ امِنْ الْكُرْمِ مِثْلُ الْوُهَجِ يَغْشَاهُ هَالَهُ  
وَالسِّدَالُ امْهَيْلَهُ وَالْبِنُّ تَوَهُ حَامِسِيْنَهُ

اسْتَمَعَ مِنْ شَاعِرٍ تَسَعُ الْقُؤَافِي ارْتِجَالَهُ  
أَعطِ قُوسِ الشَّعْرِ لَاهِلَهُ وَالْخَبْرُ جَا مِنْ ذَهَيْلَهُ

شَاعِرٍ مَا يَسْرِقُ الْأَبْيَاتَ مِنْ عَمَهُ وَخَالَهُ  
فِيضُ نَارَهُ مِنْ مَعِينَهُ وَالْبَدُ يَسْبِغُ نَعِيمَهُ

اللَّهُ كَمْ مِنْ شَاعِرٍ لَوْ شَافِنِي يَتْرِكُ ضَالَتَهُ  
الْجَمَلُ مِنْ بَعْدِ هَدْيِهِ قَامَ يَدِّنُ مِنْ حَنِينِهِ

مِنْ رِجَالِ الْمَجْدِ جَدِّ الْمَجْدِ رَزُوا لَهُ اعْقَالَهُ  
السُّيُوفُ الْمِصْلَتَهُ نَعْمِينَ بَأَسَادِ الْعَرِينَهُ

مَنْهُمْ الَّذِي اهْتَزَّ عَرْشَ اللَّهِ عَلَى غِيْبَةِ خِيَالِهِ  
وَمَنْهُمْ الَّذِي عَسَلُوهُ امْلَاكَ رَبِّي حَامِلِيْنَهُ

فِي بَلَدِنَا نَصْنَعُ التَّارِيخُ مِنْ فَجْرِ الرِّسَالَتِهِ  
نَسْقُطُ الطِّيَّازُ يَوْمَ الْحَرْبِ وَأَنْفِكَ الرِّهِيْنَهُ

إِنْ تَبِي بِالْعَرَبِي جِتِكَ الْقُؤَافِي فِي جِرَالِهِ  
وَإِنْ تَبِي بِالنَّبِطِي الْعَيْنِيكُمْ تَكْرُمُ مَدِينَتِهِ

وإنما قصدت من هذا أن الكرم خصلة إذا سارت في الناس صارت مضرب المثل  
فيهم، حتى إن هرم بن سنان أقسم إنه لا يسلم زهير بن أبي سلمى عليه إلا أعطاه  
جائزة، فاستحيا زهير، فكان يقول في المجلس: عموا صباحاً إلا هرم وخيركم  
استثيت.



ومعنى عم صباحاً، أي: وَقَفَّتْ صَبَاحاً، أو أُسْعِدَتْ صَبَاحاً. ولذلك لا مريء

القيس أبيات يذكر فيها هذا، يقول:

أَلَا عَمَّ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي      وَهَلْ يَعِمَّنْ مَنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْخَالِي؟  
وَهَلْ يَعِمَّنْ إِلَّا سَعِيدٌ مُنْعَمٌ      قَلِيلُ الْهُمُومِ مَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ

ولما وفد أبو ذر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ، أول ما وفد قال: «عِمَّ صَبَاحاً يَا أَخَ الْعَرَبِ». فقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَبَدَلَنِي بِتَحِيَّةٍ خَيْرٍ مِنْ تَحِيَّتِكَ». بتحية قومه: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فيقول زهير للمجلس: عموا صباحاً إلا هرم وخيركم استثنيت؛ لأنه حلف: ما

تصبحني بخير إلا أعطيك هدية. حتى إنه يقول فيهم:

قَوْمٌ أَبَوْهُمْ سِنَانٌ حِينَ تَنْدُبُهُمْ      طَابُوا وَطَابَ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا وَلُّوْا  
لَوْ كَانَ يُقْعَدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ      قَوْمٌ بِأَبَائِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعْنُوْا  
مُحْسِنُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نَعَمٍ      لَا يَنْزِعُ اللَّهُ مِنْهُمْ مَا لَهُ حُسْنُوْا

حتى يقول بعضهم في الغزل:

دَعَا ذَا وَكِنَ الْقَوْلُ فِي هَرَمٍ      خَيْرِ الْهُدَاةِ وَسَيِّدِ الْخَضِرِ  
لَوْ لَمْ تَكُنْ شَيْئاً سِوَى بَشَرٍ      كُنْتَ الْمُنَوَّرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ

تخلق ما تقول، أي: إني أراك تقوم بكلام تفعله حينما تقوله، أي: تبتدع كلاماً.

لكنك تفذه. فلست من الذين يقولون ما لا يفعلون.

حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «يَا بَنَ هَرَمٍ، مَاذَا أَعْطَاكُمْ زُهَيْرٌ؟ وَمَاذَا

أَعْطَيْتُمُوهُ؟ قَالَ: مَدَحْنَا وَأَعْطَيْنَاهُ. قَالَ: ذَهَبٌ مَا أَعْطَيْتُمُوهُ وَبَقِيَ مَا أَعْطَاكُمْ.»

وهو الثناء الحسن، فمن أراد الثناء الحسن فليقصد بعمله الله ﷻ.

ومن أكرم الناس على الإطلاق - ودعني من حاتم وكعب وهرم بن سنان -  
 أبو بكر الصديق رضي الله عنه «وما لأحد عنده من نعمة تجزي ١١ إلا ابتغاه وجه ربه الأعلى ١٢  
١٢ وسوف يرضى ١٣ [الليل: ١٩-٢١]. فقد أنفق أمواله في سبيل الله وطلب ما عنده رضي الله عنه  
 وأعتق الرقاب، واشترى الخيول في سبيل الله رضي الله عنه وجهد الجيش وأنفق ذات اليمين  
 وذات الشمال في سبيل الله، حتى يقول عمر رضي الله عنه: «قلت في نفسي: لأسبقن أبا  
 بكر اليوم. فأتيت بنصف مالي فأعطيته رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: يا رسول الله،  
 هل أتى أحد بمال؟ قال: أخوك أبو بكر. قال: بماذا أتى؟ قال: بماله كله. قلت:  
 والله لا أسابق أبا بكر بعد اليوم». فالخير كله عنده رضي الله عنه، ومن أمثاله رضي الله عنه عثمان  
 بن عفان رضي الله عنه فإنه جهز الجيش وشري بئر رومة للمسلمين، حتى قال رضي الله عنه: «ما  
 ضر عثمان ما صنع بعد اليوم».

والأمثال في كرم الناس كثيرة، فإن أبا حميد الطوسي كان كريماً كريماً، جعل  
 بعض الشعراء يقول فيه:

لولا حميد لَمْ يَكُنْ نَسَبٌ يُعَدُّ وَلَا حَسَبٌ  
 يَا وَاحِدَ الْعَرَبِ الَّذِي شَرَقْتَ لِمَقْتَلِهِ الْعَرَبُ

ولما مات حميد هذا وكان قد أكرم الشعراء كريماً كثيراً فقال أحدهم فيه  
 أبياتاً منها:

أُصِيبَتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ أَضْحَتْ تَضَعُضَعُ  
 وَأَدْبْنَا مَا أَدَبَ النَّاسَ قَبْلُنَا  
 وَلَكِنَّهُ لَمْ يَبْقَ لِلصَّبْرِ مَوْضِعُ  
 أَوْ أَنَّهُ فِي حُمَيْدٍ لَوْ أَنَّهُ

فهذه أقوال في الكرماء وفي الأسخياء، وهذا يدل على أن الكرم منه الكرم  
 بالجاه والكرم بالعلم والكرم بالوقت والكرم بالمال والكرم بالطعام، حتى إن من  
 لطائف الجود الجود بالسُّهر، فقد قال البخاري: باب السهر بعد صلاة العشاء.  
 فإذا جاءك ضيف واحتاج أن تسهر، أن تسهر معه، وجاء ابن القيم وأتى بهذا في  
 (مدارج السالكين) كما قال أحدهم:

لَوْ قَالَ قَاتِلُهُمْ: هَبْ لِي -فَدَيْتَ- نُورَ عَيْنَيْكَ لَمْ يَنْهَمْ

يقول: إنه من كرمه لو طلبت نوم عينيه لأعطاك نوم عينيه وبقي في سهر، وهذا شأن الكريم، فإنه كما يقول المقنع الكندي، وهو من أكرم الناس وأبياته تُروى:

يُعِيرُنِي بِالذِّينِ قَوْمِي وَإِنَّمَا  
أَسْدِيهِ مَا قَدْ أَخْلُوا وَضَيَعُوا  
وَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي  
إِذَا أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرَّتْ لُحُومُهُمْ  
وَلَا أَحْمِلُ الْحَقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ  
دُيُونِي فِي أَشْيَاءَ تُكْسِبُهُمْ حَمْدًا  
حُقُوقَ أَنْاسٍ مَا اسْتَطَاعُوا لَهَا سَدًّا  
وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لِمُخْتَلَفٍ جِدًّا  
وَإِنْ هَتُّوْا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا  
وَلَيْسَ رَيْسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحَقْدَا

إلى أن يقول - وهو الشاهد -:

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلًا وَمَا شِيمَةَ لِي غَيْرَهَا تَشْبَهُ الْعَبْدَا

فمن تواضع الإنسان ومن شهامته ومروءته أن يكون عبداً للضيف، إذا دخل تخدمه وتباشر أنت وتحيي وترحب وتتولى الأمور، فهذا يدل على نبلك وعلى حسن معدتك وعلى استقامة حالك وأذك تريد أن تسجل اسمك في سجل الخالدين.



## قصائد قتلت أصحابها

موضوع- ولو أنه مخيف لكنه طريف:-  
قصائد قتلت أصحابها. ينبئك أن الكلمة، إما  
أن ترفع صاحبها أو تقتله، وهذا في الدنيا فكيف  
في الآخرة! ولذلك تجد القرآن الكريم ينبه  
على الكلمات واستخدام العبارات، والمسؤولية  
في الجملة إذا نطقتها ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ  
رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ  
كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. ولذلك  
يقول ﷺ: «كُفَّ عَلَيْكَ لِسَانُكَ».

وبعض الشعراء أرسل لسانه، وما حَكَّم عقله على لسانه، فدفع دمه وحياته  
ثمناً لعثرة اللسان.

عثرة الرجل يقوم منها الإنسان، لكن عثرة اللسان تذهب بالرأس فيبقى  
الإنسان دون رأس، أحياناً نتحمل، لكن أحياناً تأتي كلمات غير مقبولة، وفي قائمة  
الشعراء أناس دفعوا حياتهم ثمناً لكلمات، مع أن مبدأ الحق أن يضحي من أجل  
الحق ومن أجل رسالة الحق، لكن أن يضحي من أجل الباطل وأن يقدر في الناس  
وأن يشتمهم ثم يُقتل على ذلك أو يُجلد أو يقول: إنها تضحية، فهذا عجيب.

هذا تأديب على تطاوله على أعراض الناس وعلى خصوصياتهم وعلى ذوات  
الناس.

طرفه بن العبد قُتِلَ وعمره (٢٦ سنة). فالعبقريّة لا تعترف بعمر؛ لأن  
العبقريّة أمر مشترك بين البشر من العرب وغيرهم من الجاهليين والإسلاميين،  
لكن كإنسان عبقرى، هذا طرفه وهو صاحب الدالية الرائعة الجميلة التي يفضلها  
بعضهم على كل المعلمات، والتي يقول في مطلع أبياتها من ذكر الأطلال ومنازل  
الديار وغيرها:

بِحَوْلَةِ أَطْلَالٍ بَبْرِقَةٍ تَهْمَدِ      تَلُوْحُ كِبَاقِي الْوُشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ

والتي من ضمنها:

وظلمُ ذوي الضربى أشدُّ مضاضةً      على النفس من وقع الحسام المهند

حتى يقول:

أرى الموتُ يَغْتَامُ الْكِرَامَ وَيَنْتَقِي      حَلِيلَةَ مَا لِلْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ

ولكنه سبك وحبك وقوى اللفظ.

## قصائد قتلت أصحابها

المقصود أنه تعرض للنعمان بن المنذر. وقيل: لأحد ملوك الغساسنة الآخرين. وحكم عليه بالقتل. فكتب رسالة للمتلمس الشاعر ورسالة لطرفه وأمرهما أن يذهبا بهما إلى عامله على البحرين، لكن المتلمس شك ففتح الرسالة فوجد فيها الأمر بقتله فشرده وألقى حذاءه ورحله، أما طرفه فرفض؛ لأنه ظن أنه له جائزة عند ملك البحرين، وقيل: الأحساء. فذهب من أجل أن يأخذ الجائزة؛ لأن الأمير قال له: اذهب إلى هناك. يريد أن يتخلص منه دون أن يقتله في العاصمة، وذهب بالرسالة، وقال له بعض الناس: احذر. لكنه شاب، والشاب صاحب جموح وصاحب طموح وصاحب اندفاع وشدة، فذهب وأعطى الرسالة إلى الأمير في الأحساء أو في البحرين، ففتح الرسالة فإذا فيها: إذا جاءك فاقتله. فلما جاء قيده، ثم ذبحه ذبح الشاة.

والراجح عند أهل الأدب أنه عمرو بن هند، وسبحان الله تأتي إلى ملك صاحب دولة وكيان ثم تعتدي عليه! حتى عقلاً حتى دبلوماسية حتى سياسة ما لك أن تتعرض، فكيف إذا كان هذا خطأ؟ فذبح روحه ثمناً لذلك.

وَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الْفَتَى  
وَحَقِّكَ لَمْ أَحْضَلْ مَتَى قَامَ عَوْدِي

ويقول:

فَإِنْ كُنْتُ لَا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي  
فَدَعْنِي أَبَادِرْهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

وهذا منطلق الجاهلية والوثنية، فيقول: ما دمت سأموت فعاجلوني بالمرفهات وأسرعوا لنا بالدنيا. لأنه يرى أن الموت حق، مثل: عمر الخيام، خطأه أهل العلم لما قال:

لَبِسْتُ ثَوْبَ الْعُمُرِ لَمْ أُسْتَشْرَ  
وَتَهْتُ فِيهِ بَيْنَ شَتَى الْعَبْرِ  
فَمَا أَطَالَ النَّوْمُ عُمُرًا وَمَا  
قَصَرَ فِي الْأَعْمَارِ طُولَ السَّهْرِ

لأنهم لا يعترفون باليوم الآخر الذي ذكره الله ﷻ على ألسنة أنبيائه - عليهم السلام- فالشاهد أن طرفة أخطأ فدفع ثمن ذلك حياته، أما أهل الإيمان فلهم ثلاث غير ثلاث طرفة هذه، لهم: قيام الليل، وطلب العلم، وصيام الهواجر. كما رد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه على طرفة وأمثاله.

وممن قتلهم شعرهم أبو الطيب المتنبّي الشاعر المشهور، بل هو إمبراطور، وملك الشعراء على الإطلاق، حتى إنه هو يفخر بنفسه ويحق ذلك في منطلق أهل الأرض، يقول:

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ رُوَاةٍ فَصَائِدِي إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحُ الدَّهْرُ مُنْشِدَا

وهو دائماً في قصيده، إما أن يمدح نفسه في أول القصيدة أو في آخرها، حتى إنه إذا مدح ملكاً فلا بد أن يذكر نفسه، ويرى أنه فوق الجميع، وأن الوزراء لا يستحقون أن ينظروا إليه مجرد النظر، وأنه فوق الجميع إلى آخر ما قال، فهذا هو يقول:

وَإِذَا أَتَيْتَكَ مَذْمُوتِي مِنْ ذَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ

لكنه عموماً ترك رسالة أدبية وترك أثراً كبيراً وترك حكمة، وأنا لم أر عند العلماء والحكماء استشهاداً بالأبيات أكثر من أبيات المتنبّي، حتى إن كتبهم حفلت بأبياته، وإن تنظر في مقدمة ابن خلدون، أو إحياء علوم الدين أو كتب ابن تيمية، أو من جاء بعدهم تجدها كلها تحفل بالاستشهاد بأبيات الشاعر الأعجوبة.

يقول أحد العلماء: الشعراء يمشون والمتنبّي يطير. وقرأت لأحد أدباء اليمن أن أحد ملوك اليمن قال له أديب هناك وشاعر: أنا أشعر من المتنبّي. قال: كذبت أنت وكذب أبوك وجدك؛ للمتنبّي (٥٠٠ بيت) تدور على ألسنة الملوك، علاوة على غيرهم.

ولذلك تجد غالب الحكم التي تدور على ألسنة الناس هي للمتنبّي.

## قصائد قتلت أصحابها

وقصة مقتله أنه تعرض لأحد الناس الوجهاء وتعرض لأمه وسب أمه وشتمها، فثار ذلك، فلما ذهب المتنبي إلى عضد الدولة في شيراز، الملك الذي قتل ابن بقية، وهذا الملك كان في شيراز، ثم أتى إلى بغداد فيما بعد، وكان المتنبي قد مدحه بقصائد، ويقول من ضمن قصائده فيه:

أَرْوُحٌ وَقَدْ خُتِمَتْ عَلَى فُؤَادِي (١)	بِحُبِّكَ أَنْ يَحِلَّ بِهِ سَوَاكَا
وَقَدْ حَمَلْتَنِي شُكْرًا ثَقِيلاً	طَوِيلاً لَا أُطِيقُ لَهُ حِرَاكَا
أُحَاذِرُ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُطَايَا	فَمَا تَمْشِي بِنَا إِلَّا ابْتِرَاكَا
إِذَا اسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بِنَاءٍ	فَأَكْثَرُ مَا يَعْنِكَ مَا شَفَاكَا

هذا شعر باقٍ وأعجوبة، وهو دائماً يأخذ الجائزة بين الشعراء، وكانوا قرابة الثمانين وهو الذي يأخذ الجائزة بينهم والتفوق، المقصود أنه لما أخذ الجائزة ورجع خرج له بنو أسد؛ لأنه هجا أم أحد أمرائهم وعرض بها، هجاها هجاء مقنعاً، واتهمها في عرضها - ويل له من الله - فخرج هؤلاء النفر، فلما رأى القوم أقبِلوا، ركب الفرس وأراد الفرار؛ لينجو، فقال له غلامه: ألسن القائل:

الْحَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي	وَالسَّيْفُ وَالرَّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ
أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدْبِي	وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ

فتبت وقاتل حتى قُتِلَ، وهو ذو شجاعة بالجملة وكان يقولها في شعره. فقتله شعره. وقد عُدَّت هذه من أجمل القصائد، حتى إن بعضهم يقدمها على سائر قصائد الديوان ويجعلها القصيدة الأولى من حيث الروعة والإبداع، وهي التي يقول في مطلعها:

وَإِخْرَاقِ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِيهُمُ	وَمَنْ بِحَالِي وَجِسْمِي عِنْدَهُ سَقَمُ
مَا لِي أَكْتَمُ حُبًّا قَدْ بَرَى جَسَدِي	وَتَدْعِي حُبَّ سَيْفِ الْبُلُوَّةِ الْعَجَمُ

(١) هذا نفاق اجتماعي.

إلى أن يقول:

سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مِمَّنْ صَمَّ مَجْلِسُنَا  
أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدْبِي  
وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمٌ  
وَالسَّيْفُ وَالرَّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ

إلى أن يقول:

يَا مَنْ يَعَزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ  
إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدِرُوا  
وجداننا كل شيءٍ بعدكم عدمٌ  
ألا تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمْ

إلى آخر ما قال.

لكنه ترك على كل حال حكمة.

لقيه بعض الأدباء، فقال له: أنت ادَّعيت النبوة في شبابك؟ فقال: من عشرات الشباب. أي: عشرات الصبا. قال: ما هي معجزاتك إن كانت لك معجزة؟ قال: قولي: وَمَنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صِدَاقَتِهِ بُدُ  
وقد قيل: إن هذا مما دسه عليه أعداؤه وحساداه؛ لتشويه سمعته والتكيل والكيد به.

ولكنها حكمة، فهو يقول: ومن نكد الدنيا عليك أنه لا بد لك من أن تجامل وتصانع بعض الأعداء وتتخذهم صديقاً؛ لأن هذه الحياة لا تكون إلا بهذه الطريقة، حتى إن زهير بن أبي سلمى يقول:

وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ  
يُضَرِّسُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسَمٍ

فلتكن عندك لباقة اجتماعية وعندك رفق ودبلوماسية وعندك تفاؤل في بعض

الأمر، مثلما يقول أبو تمام:



## قصائد قتلت أصحابها

لَيْسَ الْغَيْبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ      لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ الْمُتَغَابِي

فينبغي أن تتعاضى عن زلات الإخوان، وأن تتعاضل عن الإساءات؛ لأنك سوف تدفع الثمن أعلى لو أخذت النصر والقصاص.

والإمام أحمد قيل له: ما منزلة التعاضل من حسن الخلق؟ قال: تسعة أعشار حسن الخلق التعاضل. أي: أن تتعاضل عن زلات غيرك وكأنهم ما قالوا وتنسى الأمور؛ حتى تستطيع أن تعايش الناس، أما من يحاسب هذا؛ لأنه تكلم فيه ويرد على هذا؛ لأنه كتب فيه مقالة، وينظم قصيدة ويرد على ذلك؛ لأنه أجاب بقصيدة، فيذهب العمر وتزداد العداوات.

قرأت لرئيس أمريكي مشهور (إبراهام لنكولن)، يقول: أنا لا أرد على رسائل الشتم التي تُوجَّه إليّ، أو لا أفتحها، فضلاً عن أن أرد عليها. فينبغي علينا التعاضل وأخذ العبرة من سيرة هؤلاء الذين دفعوا حياتهم.

وممن قُتِلَ علي بن جبلة العُكُوكُ، وكان من أشعر الناس، وعلي بن جبلة هذا عاش في العصر العباسي في عهد المأمون، حتى يقول الذهبي عنه: شعره كله نُحْبَبُ. أي: جواهر ودرر. وهو الذي يقول:

بِأَبِي مَنْ زَارِنِي مُكْتَتِمًا      حَذِرًا مِنْ كُلِّ وَاشٍ جَزِعَا  
يُقْرِغُ السَّنَّ عَلَى تِلْكَ الْخُطَا      ثُمَّ مَا سَأَلْتُمْ حَتَّى وَدَعَا

ونظم قصيدة في أبي دُلف الأمير، وأبو دُلف أمير مشهور في خراسان من أكرم الناس، لكنه أمير من قبيل المأمون والمأمون هو الخليفة الملك، فضله على كل أهل الأرض بما فيهم المأمون، يقول في القصيدة -وهي من أجمل القصائد:-

دَادَ وَرُذُّ الْعَفْيِ عَنِ صَدْرٍ  
 دَعَّ جَدًّا قَحْطَانًا أَوْ مُضَرًّا<sup>(١)</sup>  
 وَأَمْتَدِيحٍ مِنْ وَائِلٍ رَجُلًا  
 الْمَنْأَيَا فِي شَبَابٍ يَدِهِ  
 إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلْفٍ  
 فَ— إِذَا وَلَّى أَبُو دُلْفٍ  
 كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ  
 مُسْتَعِيرٍ مِنْكَ مَكْرُمَةٌ  
 فَارْعَوَى وَالْعَفْيِ مِنْ وَطْرِهِ  
 فِي يَمَانِيهِ وَفِي مُضَرِّهِ  
 حَجَرِ الْأَيَّامِ فِي حُجْرِهِ  
 وَالْعَطَايَا فِي شَبَابِ ظُفْرِهِ  
 بَيْنَ بَادِيِهِ وَمُحْتَضِرِهِ  
 وَكَتَبَتِ الدُّنْيَا عَلَيَّ أُنْفَرِهِ  
 بَيْنَ بَادِيِهِ إِلَى حَضْرِهِ  
 يَكْتَسِيهَا يَوْمَ مُفْتَحْرِهِ

يقول: كل الناس يأخذون منك المكارم ويأخذون منك مجدهم. وهذا مبالغة ونفاق، فسمع بذلك المأمون، الخليفة العباسي في بغداد، فقال عن نفسه: قتله الله إن لم يقتل علي بن جبلة. ثم قال: علي به. وأتوا به إلى بغداد، وأيقن أنه لن يقتله أمام الناس؛ لأنه مدح ذلك وغلبه عليه، بل لا بد من أن يتخذ حيلة؛ كي يفتي العلماء بجواز قتله، ويبرر للرأي العام أنه قتله بحجة، فأدخل عليه في البساط وكان أسمر، وعلي بن جبلة فيه بهق وبرص، لكنه شاعر يأخذ بالألباب، ومن أمثلة شعره ما قاله لما مات حميد الطوسي البطل، مما يعد من فن الرثاء:

أُصِبْنَا بِيَوْمٍ فِي حُمَيْدٍ لَوْ أَنَّهُ  
 أُصِيبَتْ عُرُوشُ الدُّهْرِ أُضْحَتْ تَضَعُّعُ  
 وَأَدْبْنَا مَا أَدَّبَ النَّاسَ قَبْلُنَا  
 وَلَكِنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي الصَّدْرِ مَوْضِعُ

الشاهد أنه لما دخل قال المأمون: قتل الله نفسي إن لم أقتلك؛ لكن لن أقتلك بقولك:

كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ  
 مُسْتَعِيرٍ مِنْكَ مَكْرُمَةٌ  
 بَيْنَ بَادِيِهِ إِلَى حَضْرِهِ  
 يَكْتَسِيهَا يَوْمَ مُفْتَحْرِهِ

(١) أي: اترك عطاياهم.

## قصائد قتلت أصحابها

جعلتنا كلنا عبيداً لأبي دُلف، نحن الذين نكتسي منه المفاخر، مع العلم أن المأمون هو الخليفة! لكنني أقتلك بأبياتك التي تقول فيها:

أَنْتَ الَّذِي تُنَزِّلُ الْأَيَّامَ مَنَزِلَهَا      وَتُنَزِّلُ الدُّهْرَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ  
وَمَا مَسَدَدَتْ بِأَفْلامٍ مُرْتَبِيَةً      إِلَّا قَضَيْتَ بِأَرْزَاقٍ وَأَجَالٍ

والصحيح أنه قتله في أبياته في مدح أبي دلف.

قال: يا غلام، اضرب رأسه. فقتله في البساط، فدع ثمن كلماته المبالغة المجحفة التي لا يُقرها عقل.

وابن هانئ الأندلسي قُتل وعمره (٢٧ سنة)، أُصيب بمرض عضال، يقول في أحد أمراء الفاطميين، وهل هذا الكلام يُقال لبشر!:

مَا شِئْتُ لَا مَا شَاءَتْ الْأَقْدَارُ      فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

قاتله الله! الواحد القهار الذي تضرد بالبقاء بقرآن له الأسماء الحسنى، لا إله إلا هو. حتى يوسف عليه السلام في الزنزانة يلقي محاضرة في التوحيد لما أتوا يطلبون تعبير رؤياهم.

﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]. فسمى الله بقرآن

باسمين عظيمين: فهو الواحد الذي تضرد بذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله جل في علاه لا إله إلا هو، ثم قال: القهار. الذي قهر غيره فإنه لو كان واحداً ولم يكن قهاراً لم يكن هناك تمام في الملك، فقال: الواحد القهار. فيأتي هذا - نعوذ بالله من عمله ومن سوء إرادته ونيته - فيقول:

مَا شِئْتُ لَا مَا شَاءَتْ الْأَقْدَارُ      فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

قيل: إنه قُتل فيما بعد، تعرض له بعض الناس وقتله. وقيل: أصابه مرض عضال فأصبح يتقلب ويعوي ويصيح ويضح، ويقول:

أَبْعَيْنِ مُفْتَقِرٍ إِلَيْكَ نَظَرْتَنِي فَأَهْمُنْتَنِي وَقَدَفْتَنِي مِنْ حَادِقِ  
 لَسْتُ الْمَلُومُ أَنَا الْمَلُومُ؛ لِأَنِّي عَلَقْتُ آمَالِي بِغَيْرِ الْخَالِقِ  
 الآن يقر الإنسان بسعة الصدر.

يقول علي الطنطاوي: ساعة الصفر ساعة لقاء الله وساعة سكرات الموت، يُدْعَن فِيهَا الْجِبَارُ وَيُضْعَفُ فِيهَا الْقَوِيُّ، وَيَفْتَقِرُ فِيهَا الْغَنِيُّ، وَيَتُوبُ فِيهَا الْعَاصِي.  
 حتى فرعون شيخ الملاحدة يقول: ﴿ءَأَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ  
 بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]. لكن هيهات، فينبغي أن يحسب الأديب  
 كلماته والشاعر كذلك، وهذا في الدنيا فكيف عند الله! هذا غضب الملوك  
 والأمراء والجبابرة، فكيف غضب الله الواحد القهار ﷻ؟

ولذلك لما ذكر الله ﷻ شهادة بني إسرائيل المزورة على الرسالات  
 السماوية الخاطئة الكاذبة قال: ﴿سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيَسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].  
 أي: سوف نكتبها ونسألهم. يقول ﷻ عن الكلام المزور: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ  
 الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ [آل عمران: ١٨١]. ثم  
 قال في الملفات الماضية الأدهى: ﴿وَقَتَلَهُمُ الْآنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا  
 عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]. اللهم أحسن خاتمتنا يا رب العالمين.



## قصائد سارت بها الركبان

هي أبيات من الأدب العربي خُلِّدَت عند العرب وصارت مضرب المثل، حتى حفظها الناس وتداولوها في المجالس لحسنها، وما كل شاعر يمكن أن يُخلَّد أدبه وشعره، لكنَّ هناك نابقين، والنابقون من الشعراء هم الذين سَطَّروا أبياتهم في قلوب الناس، وهذه حظوظ من الله ﷻ فالشيوخ والذيوخ حظ منه ﷻ يُرزق به شاعر ويُحرم ألف شاعر، وأذكر بالمناسبة قائمة، منهم المتنبي وأبو تمام والبحتري وحسان، وشوقي

من المعاصرين يخرج شعرهم، ويُتقل بين الناس، حتى إن من ضمن الأبيات المشهورة التي يقولها أبو تمام -وهي أكثر ما يتداول على السنة الناس-:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ      طُويِتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانُ حَسُودٍ  
كَوْلًا اشْتَعَالَ النَّارَ فِيمَا جَاوَرَتْ      مَا كَانَ يُعْرِفُ طَيِّبَ نَفْحِ الْعُودِ

وهذه حكمة، فيقول: إن الله إذا أراد أن ينشر فضيلة رجل ما سلط عليه حسوداً، فينقب عنه فيشتهر هذا الرجل، حتى رأيت مصطفى أمين الكاتب المصري المشهور قال: إذا رأيت ناجحاً أو صحيفة أو كتاباً، ورأيت له نجاحاً وأصبح ينهال عليه كلام الحساد ويلقون عليه بالطوب، فأعرف أنها مدفوعة انتصار تطلق (٢١ طلاقة) في فرح انتصار هذا الشخص. وهذا أمر معلوم لكن قصدي شيوع الكلام وانتشاره في الناس، وممن رزق ذلك أبو تمام حتى إنه يقول -من ضمن أبيات له توضع في التقويم اليومي-:

مَرَّتْ سِنِينَ بِالسُّعُودِ وَبِالْهَنَا      فَكَأَنَّهَا مِنْ قِصْرِهَا أَيَّامٌ  
ثُمَّ انْتَدَتْ أَيَّامٌ هَجَرَ بَعْدَهَا      فَكَأَنَّهَا مِنْ طُولِهَا أَعْوَامٌ  
ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السِّنِينَ وَأَهْلُهَا      فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهُمْ أَحْلَامٌ

هذه هي الحياة؛ فسنينها الطيبة أيام، وأيام الشدة فيها أعوام، وتمر جميعاً، فتصبح كأنها أحلام. وهذه هي الحياة الدنيا، لكن أن يترجمها بهذا الكلام فهذه هي الفصاحة والبلاغة.

ومن ذلك أنه نظم قصيدة في المعتصم بهنئه بفتح عَمُورِيَّةٍ بـ (٧٠ بيتاً).

يقول ابن القيم: إنه أعطاه على كل بيت (١٠٠٠ دينار). حتى إنه يُذكر عن أبي تمام أنه قال: لو كنت أعلم أنه سيعطيني على كل بيت لكنت زدت في القصيدة. وهي التي يقول فيها:

## قصائدهم سارت بها الركببان

السَيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ  
فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ  
إلى أن يقول:  
خَلِيفَةُ اللَّهِ، جَارَى اللَّهِ سَعِيكَ عَنْ  
جُرْثُومَةِ الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ وَالنَّسَبِ  
إلى آخر ما قال.

وبالمناسبة، فإن عبد الله البرودني شاعر اليمن عارضه بقصيدة على وزن قصيدته، فيقول:

مَا أَقْبَحَ السَّيْفِ إِنْ لَمْ يُمِضْهُ الْغَضَبُ  
وَأَكْذَبَ السَّيْفِ إِنْ لَمْ يَصْدُقِ الْغَضَبُ  
بِيضُ الصَّفَائِحِ أَهْدَى حِينَ تَحْمِلُهَا  
أَيْدٍ إِذَا غَلَبَتْ فِي كَفِّهَا الْغَلَبُ  
وَأَقْبَحُ النَّصْرِ نَصْرُ الْأَغْبِيَاءِ بِلا  
هَمُّ سُوَى كَمِّ بَاعُوا وَكَمِّ كَسَبُوا

والشاهد ذبوع شعر هذا الشاعر الكبير.

ومما درج من الشعر وانتشر أبيات ليزيد بن معاوية وقيل: لخالد ابنه الأمير صاحب الكيمياء وهو لم يتول الخلافة ولكنه شاعر، يقول:

وَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً  
لَكُنْتُ شَفِيئُ النَّفْسِ قَبْلَ التَّنَدُمِ  
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَ لِي الْبُكَاءُ  
بُكَاهَا، فَفَلَّتْ: الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

وعلى ذِكر ذلك يقولون: إنه قال هذه الأبيات في مكة ولم يذهب إلى الطائف، وكانت زوجته تبكي للفراق، فقال:

فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً  
بِسُعْدَى شَفِيئُ النَّفْسِ قَبْلَ التَّنَدُمِ  
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَنِي الْبُكَاءُ  
بُكَاهَا، فَفَلَّتْ: الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

وما دمننا في الطائف وحول مكة، فقد كان للحجاج أخت اسمها زينب، ذهبت معتمرة مع وفد، أي: أخت الأمير، أمير العراق. فأخذت وفداً وحاشية ونزلت من الطائف على جبل نعمان تريد المناسك جهة عرفة، فرأها النميري الشاعر وكان بين الشجر، وهي مازة فزاحت طيباً في الوادي لما مرت وضاع المسك، فقال:

تَضَوُّعٌ مِسْكَاً بَطْنُ نِعْمَانَ أَمْ مَشَتْ      بِهِ زَيْنَبُ فِي نِسْوَةِ عَطِرَاتِ  
تَهَادِينَ مَا بَيْنَ الْمُحْصَبِ مِنْ مَنَى      وَأَقْبَلْنَ لَا شُعْدَاءَ وَلَا غِيَرَاتِ  
يُحْبِنَنَّ أَطْرَافَ الْبِنَانِ مِنَ التَّقَى      وَيَقْتُلْنَ بِالْأَلْحَاظِ مُقْتَدِرَاتِ  
فَلَمَّا رَأَتْ رَكْبَ النُّمَيْرِيِّ أَعْرَضَتْ      وَأَصْبَحْنَ أَنْ يَلْقَيْنَهُ حَذِرَاتِ

وضع نفسه موضعاً خطيراً وعنده موكب، شكاه الحجاج إلى عبد الملك فدعاه، قال: يا عدو نفسه، ما هو الركب الذي عندك؟ قال: واللّه - يا أمير المؤمنين - ما عندي إلا أتان. أي: حمار لا يساوي (٢٠٠ درهم). فأعتقه وسامحه وشرط عليه ألا يتعرض للحرمات.

ومن الذبوع في الشعر ما يُحفظ للشاعر طُفَيْلُ الْعَنَوِي، فله ثلاثة أبيات - وقيل: أربعة - سارت وذاعت، حتى إن الشافعي أتى بها في السيرة، يرويها عن الشعبي. قال: لما اجتمع الصحابة رضي الله عنهم في سقيفة بني ساعدة، بعد وفاة سيد الخلق صلى الله عليه وآله يريدون اختيار خليفة. الأنصار ظنوا أن لهم من الأمر شيئاً، مع أن أمر الخلافة في قريش في عهد الرسول صلى الله عليه وآله، فاجتمعوا هنا، فحضر أبو بكر وعمر وأبو عبيدة رضي الله عنهم فسكتهم عمر رضي الله عنه فما سكتوا، يقول عمر: «زُورْتُ كَلَاماً فِي صَدْرِي - أي: جهزت كلاماً في صدري وهياته - وَكُنْتُ أَرَا فِي أَبِي بَكْرٍ حِدَّةً، فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فَسَكَّنِي أَبُو بَكْرٍ فَسَكَّتْ، قَالَ: فَتَكَلَّمْتُ أَبُو بَكْرٍ بِكَلَامٍ، وَاللَّهِ مَا تَرَكَ كَلَاماً فِي صَدْرِي زُورْتُهُ إِلَّا أَتَى بِأَحْسَنٍ مِنْهُ عَلَى الْبِدَاهَةِ، قَالَ: أَيُّهَا الْأَنْصَارُ، نَحْنُ الْأَمْرَاءُ وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ، نَحْنُ الشُّعَارُ وَأَنْتُمْ الدُّنَارُ، أَسَيْتُمْ وَنَصَرْتُمْ وَأَوَيْتُمْ وَكَفَيْتُمْ، وَاللَّهِ مَا مَثَلْنَا وَمَثَلَكُمْ - أَيُّهَا الْأَنْصَارُ - إِلَّا كَمَا قَالَ طُفَيْلُ الْعَنَوِي لَمَّا نَزَلَ فِي بَيْتِي جَعْفَرُ:

## قصائده سارت بهذا الرجزان

جَزَى اللهُ عَنَّا جَعْفَرًا حَيْثُ أَشْرَفَتْ      بِنَا نَعْدُنَا فِي الشَّارِفِينَ فَرَلَّتْ  
هُمُ خَلَطُونَا بِالنُّفُوسِ (١) وَأَلْجَوْوَا      إِلَى عُرْفَاتِ أَدْفَاتٍ وَأَظْلَلَّتْ  
أَبْوَا أَنْ يَمْدُونَا وَلَوْ أَنْ أَمَنَا      تَلَاقِي الَّذِي يَلْقَوْنَ مِنَّا لَمَلَّتْ

وهذه القافية جميلة (ملت، رلت). حتى إن كثير عزة يقول:

هَنِيذًا مَرِيذًا غَيْرَ دَائِمٍ مُخَامِرٍ      لِعِزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ

وأحد الشعراء أتى أميراً، فأعطاه جائزة، فقال:

رَأَى خَلْتِي مِنْ حَيْثُ يَخْضَى مَكَائِهَا      فَكَأَنْتَ قَدَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتْ

يقول: رأى فقري وكنت أستر فقري، لكن الكريم يكشف فقر الفقير وحاجة المحتاج، فنظر إلي حتى اكتشف خلتي.

فيقول: إنه لما رأى حاجتي وفقري لم ينم، وصارت قذى في عينه حتى فرج عني- فرج الله عنه.

وعلى هذا دعا سيف الدولة الحمداني أبا الطيب المتنبى الشاعر المشهور، فقال له: أعجبني بيت:

رَأَى خَلْتِي مِنْ حَيْثُ يَخْضَى مَكَائِهَا      فَكَأَنْتَ قَدَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتْ

فزد عليه أبياتاً. فقال المتنبى على البداة:

لَنَا مَلِكٌ لَا يَطْعُمُ الْعَمُضُ جِفْنَهُ      مَمَاتٍ لِحْيٍ أَوْ حَيَاةٍ لِمَيِّتِ  
جَزَى اللهُ، عَنَّا سَيْفَ دَوْلَةِ هَاشِمٍ      فَإِنَّ مَسَادَهُ الْعُمَرُ سَيْفِي وَدَوْلَتِي  
رَأَى خَلْتِي مِنْ حَيْثُ يَخْضَى مَكَائِهَا      فَكَأَنْتَ قَدَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتْ

(١) هذا واقع الأنصار بالمهاجرين.

فهذا مما سارت به الركبان.

ومن أشهر شعراء الجاهليين عدي بن زيد، وله قصيدة بديعة، حتى إن الخليفة الناصر دعا ابن الجوزي الواعظ الكبير، وقال له: أكمل هذه القصيدة ولو كانت مجلدات. فأكملها بألاف الأبيات، والتي يقول فيها عدي بن زيد:

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعَيَّرُ بِالدَّهْرِ      أَنْتَ الْمُبْرَأُ الْمَوْفُورُ؟

يقول: يا من يشمت بنكباتنا ويشمت بمصائبنا إذا حلت بنا، أنت مبرأ ومعك صك غفران، فما تصيبك مصيبة ولا تأتيك نكبة؟ وإذا أتتنا نكبة تشمت بنا.

هَلْ رَأَيْتَ الْمَنَايَا خُلْفَنَ      أَمْ مَنْ دَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَبِيرُ؟

يقول: هل رأيت أحداً ما تكدر أو أصيب؟ رأيت في الخليفة إنساناً ما عتَرَ؟ رأيت في العالم إنساناً ما أصيب ابنه، أو أصيب في أهله أو في جسمه؟ حتى يقول أحد الشعراء:

كُلُّ مَنْ لَاقَيْتَ يَشْكُو دَهْرَهُ      لَيْتَ شِعْرِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِمَنْ

يقول: مكدره هي الدنيا. هذه قصيدته من أشهر ما قيل، يقول:

مَنْ رَأَيْتَ الْمَنَايَا خُلْفَنَ أَمْ مَنْ      دَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ

أَيْنَ كِسْرَى كِسْرَى الْمُلُوكِ أَنْوَشِرُ      وَأَنْ أَمْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ

انتهوا كلهم. وهي قصيدة طويلة.

ولجمالها وذيووعها، فقد ذكروا أن عبد الله بن المبارك المحدث العابد الزاهد المجاهد مرّ فرأى قصر طاهر بن حسين في خراسان، وكان قصراً كبيراً مرتفعاً، فقال: والله إن قصيدة عدي بن زيد أحسن عندي من هذا القصر لو كان لي، وهي:



## قصائد سارت بها الزكبان

أَيُّهَا الشَّامَةُ الْمُعَيَّرُ بِالدَّهْرِ      أَأَنْتِ أَلْمُبْرَأُ أَلْمَوْفُورُ؟

وعدي بن زيد له أبيات، منها يقول - لما رأى بيوتاً وقصوراً، وقد مات ملوكها كالنعمان ومن كان معه -:

جَرَّتِ الرِّيَاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ      فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِعَادِ

يقول رضي الله عنه عن الأمم والثقافات والحضارات السابقة والدول ﴿هَلْ تُحْسِنُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

ولما مرَّ علي رضي الله عنه ببيابل ورأى الدور، وإذا هي مهدمة كأن لم تغن بالأمس، قال:

جَرَّتِ الرِّيَاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ      فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِعَادِ

ويقول ابن بطوطة: إنه مرَّ بخراسان بمقبرة، فوجد في المقبرة لوحة مكتوب عليها: كُفِّنَ فِي هَذِهِ الْمَقْبَرَةِ (١٠٠٠ ملك) من ملوك خراسان، ومكتوب عليها أيضاً بيت شعر:

وَسَلَاطِينُهُمْ سَلَّ الطَّيُورُ عَنْهُمْ      وَالرُّؤُوسُ الْعِظَامُ صَارَتْ عِظَامَا

وهذا مما شاع في الناس، وذاع حتى صار مضرب المثل.

ومطالع القصائد العربية هي مما شاع وذاع عند الناس؛ فامرؤ القيس قال:

قِفَا نَبِكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ      بِسَقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وبعض المعاصرين يقول:

قِفَا نَبِكَ مِنْ ذِكْرِي كِتَابٍ مُنْزَلِ

لأن ذلك يجيد بكاء الديار وذكر النوق ومرايع الصبا وملاعب الفتوة، والعرب إنما حنت للديار وللأوطان أكثر من أي حنين، ولذلك فشعر الأوطان مما يأخذ بالجنان ومما يهيج الإنسان، وأحسن شيء عندي في الوطن هو قول ابن الرومي:

وَأَلَا أَرَى غَيْرِي لَهُ الدَّهْرُ مَالِكَا      وَلِي وَطَنٌ أَلَيْتُ أَلَا أْبِيعَهُ  
كِنَعْمَةَ قَوْمٍ أَصْبَحُوا فِي ظِلَالِكَا      عَهْدْتُ بِهِ شَرْحَ الشَّبَابِ وَنِعْمَةَ  
مَعَاهِدُ قَضَاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَا      وَحُبُّ أَوْطَانِ الرَّجَالِ إِلَيْهِمْ  
عُهُودُ الصِّبَا مِنْهَا فَحَنُوا لِذَلِكََا      إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرْتَهُمْ

وهذا من شعر الأوطان التي حن لها الشعراء إذا استقروا، لكن بعضهم لا يستقر، تراه يتنقل من دار إلى دار ومن سكن إلى سكن، حتى يقول أبو تمام:

بِالشَّامِ أَهْلِي وَبِغَدَادِ الْهُوَى وَأَنَا      بِالرَّقْمَتَيْنِ وَبِالْفُسْطَاطِ جِيرَانِي

وقد نظمت على موضوعها وقافيتها قصيدة، فقلت:

أَنَا الْحِجَازُ أَنَا نَجْدٌ أَنَا يَمَنٌ      أَدَا الْجُنُوبُ بِهَا دَمْعِي وَأَشْجَانِي  
وَفِي رُبَى مَكَّةَ تَارِيخُ مَلْحَمَةٍ      عَلَى ثَرَاهَا بَنَيْنَا الْعَالَمَ الْفَانِي  
فِي طَيْبَةَ الْمُصْطَفَى عُمْرِي وَأَعْنِيَّتِي      فِي رَوْضَةِ الْمُصْطَفَى عُمْرِي وَرِضْوَانِي  
النَّيْلُ مَائِي وَمِنْ عَمَّانَ تَذَكَّرْتِي      وَفِي الْجَزَائِرِ إِخْوَانِي وَتَطْوَانِي  
فِي الشَّامِ أَهْلِي وَبِغَدَادِ الْهُوَى وَأَنَا      بِالرَّقْمَتَيْنِ وَبِالْفُسْطَاطِ جِيرَانِي  
فَأَيْنَمَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ فِي بَلَدٍ      عَدَدْتُ ذَلِكَ الْحِمَى مِنْ صُلْبِ أَوْطَانِي  
وَالْوَحْيِ مَدْرَسَتِي الْكُبْرَى وَعَارُ حِرَا      تَارِيخُ عُمْرِي وَمِيلَادِي وَرِضْوَانِي  
وَوَيْقَةَ كُتِبَتْ فِي الدُّوْحِ وَانْهَمَرَتْ      آيَاتُهَا فَاقْرَؤُوا- يَا قَوْمَ- قُرْآنِي

فهذه أبياتهم يوم سارت في الناس، حتى إنهم اختلفوا في أجود الأبيات وأفضلها، وكل يقول بحسب معرفته؛ فمنهم من يقدم قول جرير- يخاطب بني أمية عند عبد الملك:-

## قصائد سارت بها الركبان

أَتَضْحُو<sup>(١)</sup> أَمْ فُوَادُكَ غَيْرُ صَاحِ  
عَشِيَّةٌ هُمْ صَحْبُكَ بِالرَّوَّاحِ

فقال عبد الملك: بل فوادك أنت. فزجره في أول الأبيات، فلما قال:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا  
وَأَنْتَ بَدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحِ

قال عبد الملك: بلى، بلى. وأعطاه جائزة على ذلك.

ومما سارت به الركبان قول حسان - حتى إن الأصمعي يقول: هو من أفضر

الأبيات. يقول بيدر-:

وَيَوْمَ بَدَرَ إِذْ يَصُدُّ وُجُوهَهُمْ  
جَبْرِيلُ تَحْتَ لَوَائِنَا وَمُحَمَّدِ

وحسان رضي الله عنه صاحب قافية وله أبيات مائعة، حتى إنه إذا أراد أن يهجو  
المشركين أوصل إلى الكبد وكوى، أي: يُنْضِجُ الكبد تنضيحاً راقياً مثل: الميسم.

طُوبَى لِمُعْتَرِكِ مِثْلِ الْأَرَامِ  
إِنْ كُنْتَ كَاذِبَةً الَّذِي حَدَّثَنِي  
تَسْقِي الضُّجَيْعِ بِبَارِدِ بَسَامِ  
فَنَجُوتِ مَنْ ذِي الْحَارِثِ بْنِ هِشَامِ

يقصد الحارث أخا أبي جهل، وكان قد فر من بدر، فيقول:

تَرَكَ الْأَحِبَّةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ  
وَنَجَا بِرَأْسِ طِمْرَةٍ وَلِجَامِ

ولكن بعد ذلك أسلم الحارث بن هشام، وبعدها قُتِلَ شهيداً رضي الله عنه في

اليرموك.

ومن أكثر الشعراء ذيوماً وشيوماً في شعرهم المتنبّي، إذ إن شعره صار

حكماً وروائع، ومن ذلك أنه يقول:

وَمِنَ الْعَدَاوَةِ مَا يَنَالُكَ نَفْعُهُ  
وَمِنَ الصَّدَاقَةِ مَا يَضُرُّ وَيُؤْلِمُ

(١) هو يقصد نفسه، لكنه يكلم الخليفة، وهذا مما لا يصلح.

ولما تحدث عن الدنيا قال:

لَحَى اللَّهُ ذِي الدُّنْيَا مَنَاحًا لِرَاكِبٍ      فُكِّلُ بِعِيدِ النُّهْمِ فِيهَا مُعَذَّبٌ  
ويقول عن الحَسَادِ:

سَوَى وَجَعِ الحُسَادِ دَاوِ فَإِنَّهُ      إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحْوُلُ

بل أتى بالقصيدة اللامية الأخرى، التي يقول فيها:

لَا حَيْلَ عِنْدَكَ تَهْدِيهَا وَلَا مَالٌ      فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِذْ لَمْ تُسْعِدِ الحَالُ

فلا بد من أن يُطعّم القصيدة بأبيات من الحكمة المؤثرة الخالدة في الناس، ولذلك استحق أن يكون ملك الشعراء في مسألة القافية، حتى إن ديوانه شُرح أكثر من (٨٠ شرحاً) فقد مدح سيف الدولة بقصيدة رائعة، يقول فيها:

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا      وَعَادَاتِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطُّعْنُ فِي العِدَا  
هُوَ البَحْرُ خُضَّ فِيهِ إِذَا كَانَ سَاكِنًا      خُنْدِ الدَّرِّ وَاخْذَرُهُ إِذَا كَانَ مُزِيدَا  
إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكَتُهُ      وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللُّثِيمَ تَمَرَّدَا  
فَوَضِعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعَلَا      مُضْرُكُ وَضِعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

ومثل هذا يقول:

نَعِدُ المَشْرِفِيَّةَ<sup>(١)</sup> وَالعَوَالِي      وَتَقْتُلُنَا المَمْنُونُ بِإِلَاقَتَالِ  
وَتَرْتَبِطُ السَّوَابِقُ مَقْرِبَاتِ      فَمَا يُنَجِّينُ مِنْ حَبَبِ اللِّيَالِي  
رَمَانِي الدَّهْرُ بِالأَزْرَاءِ حَتَّى      فَوَادِي فِي غِشَاءِ مِنْ نِبَالِي  
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابْتَنِي نِصَالٌ      تَكْسَرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ

(١) المشرفية: السيف.

## قصائد سارت بها الركبان

ثم يمدح ويقول:

وَإِنْ تَفُقِ الْأَنْبَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ      فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

فهذا هو الشيوع والذبوع الذي انتشر عند بعض الشعراء؛ بسبب تجويدهم  
لللمة والعبارة، وهذا من فضل الله ﷻ.



oboeikendi.com

## املؤوا فمه دراً

كلمة عند أهل الأدب مشهورة بقولها  
الخلفاء والوزراء والأمراء للشاعر إذا أجاد،  
يقول: املؤوا فمه دراً. أي: فوق الجائزة. إذا  
بلغ بالسامع الوزير الأمير الملك مبلغه من  
الإعجاب بهذا الشاعر، ومن ملئت أفواههم دراً  
عبر تاريخ الأدب أربعة أو خمسة فقط؛ لأنه قلَّ  
أن يأتي شاعر بيت ساطع لامع يمكن أن يخلع  
قلب الخليفة؛ لأن السحر الحلال هو الأدب،  
ولذلك «إِنَّ مِنْ الْبَيَّانِ سِحْرًا».

أذكر على سبيل المثال أبا نواس الشاعر الكبير، وهو مدرسة بلا شك، مدح الوزراء في عهد بني العباس.

وله قصة مع علي بن موسى الرضى. فأول ما تولى المأمون كان ولي عهده علي بن موسى الرضى من بيت الرسول ﷺ من سلالة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لكن بني العباس ما تحملوا ذلك، لكن المأمون مائل لأهل البيت أكثر، فأتى بعلي بن موسى الرضى فجعله ولي عهده، وعلي بن موسى هذا كان قد ذهب إليه الشاعر دعبل الخزاعي في خراسان وألقى قصيدته التائية التي يقول فيها:

بَدَأَتْ زِيَادٌ فِي الْقُصُورِ نَوَاحِمُ      وَأَلَّ رَسُولِ اللَّهِ فِي الْفُلُواتِ  
إِذَا وَتَرُوا مَدِينًا إِلَى وَاتِرِهِمْ      أَكْفَأَ عَلَى الْأَوْتَارِ مُنْقَبِضَاتِ

ينعى فيها آل البيت، حتى يقول:

قُبُورُ عَلِيٍّ وَالْحُسَيْنِ وَجَعْفَرٍ      وَحُمَزَةُ وَالسَّجَادِ ذِي النُّفُذَاتِ  
وَقَبْرِ بَبْغَدَادَ لِنَفْسِ زَكِيَّةٍ      تَضُمُّهَا الرَّحْمَنُ فِي الْغُرُفَاتِ

فأعجبني على علي بن موسى الرضى من هول القصيدة وقوتها وسقط من على كرسیه.

وأبو نواس مدح الوزراء والأمرء ونسي ولي العهد وهو من أهل البيت، فجاء العلماء وقالوا: تمدح فلاناً وتمدح فلاناً وتنسى ولي العهد هذا؟ وكان ما ترك أحداً إلا مدحه حتى بائع الجرجير مدحه. فنظم أبياتاً قوية مؤثرة، فذهب يعتذر عند علي بن موسى، قال:

قِيلَ لِي <sup>(١)</sup>: أَنْتَ وَاحِدُ النَّاسِ فِي      كُلِّ مَعْنَى مِنَ الْكَلَامِ بَدِيهِ

(١) يقصد نفسه ويمدحها.

## املؤوا فمه ويرا

فيقول: إن الناس قالوا: إني صاحب كلمات، وإني وحيد في العبارات، وإني أطلق اللفظ إذا أردت.

لَكَ فِي جَوْهَرِ الْكَلَامِ بَدِيعٌ      يَثْمُرُ السُّدْرُ فِي يَدَيِ مُجْتَنِيهِ  
فَعَلَامٌ تَرَكْتَ مَدْحَ ابْنِ مُوسَى      بِإِخْصَالِ الَّتِي تَجْمَعُنْ فِيهِ  
قُلْتُ: كَيْفَ أَهْتَدِي لِمَدْحِ إِمَامٍ      كَانَ جِبْرِيلُ صَاحِبًا لِأَبِيهِ

فانظر إلى هذه العبارات، حتى يقول السوري: أجزم جزماً أنه لم يمدح أحدًا بمثل هذه. فقال: املؤوا فمه درأ. لأنه أجاد إجادة فوق اللازم؛ حيث يقول: أنا أمدح الناس العاديين، أما أنت فجدك ﷺ صاحب جبريل، فأنتم شيء آخر؛ نبوة ورسالة ولا أستطيع أن أمدحك، فدعنا نمدح التجار والعمال والموظفين.

والموحدون هم الذين قاموا في المغرب وأسسوا دولتهم، ومن أشهر ملوكهم عبد المؤمن بن علي، كان يقول: أصولنا ثلاثة: القرآن، وسنن أبي داود، وهذا السيف. فلا أنصاف حلول، وأخذ كتب الفقه والأصول المالكية وأحرقها بالنار، وقال: عودوا إلى الكتاب والسنة. هذه وجهة نظره في الباب، وشجعه بعض العلماء على هذا، الشاهد أنه أتى شاعر يمدحه، يريد أن يمدح عبد المؤمن بن علي صاحب التصميم والعزيمة، الذي يخافه الناس رهبة وكل كلماته مؤثرة في القتال وفي الحروب وفي العلم وفي المعرفة، وقال:

قَدَّتْ فُؤَادِي مِنَ الشُّبَّاكِ إِذْ نَظَرْتُ      وَرُقَاءٌ جَادَتْ مِنَ الشُّبَّاكِ بِالْمُقَلِّ  
كَأَنَّ فَتَكَّتْهَا فِي قَلْبٍ عَاشِقِهَا      ضَرَبَ الْخَلِيفَةَ عَبْدَ الْمُؤْمِنِ بِنِ عَلِي

قال: غير القصيدة. أي: غير هذا المطلق. ما تطلع على الشباك وورقاء ونظرت ورأيانها وسقطت وخافت.

فقال الشاعر:

مَا هَزَّ عَطْفِيهِ بَيْنَ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ      مِثْلُ الْخَلِيْفَةِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ

قال: امسح القصيدة وأبق هذا البيت، واملؤوا فمه درأً. فقوله هذا معناه أن من عادة السيوف والرماح أن تلوح بين الصفيين في المعركة، وما لاحت في يد أحد مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي.

وممن ملئ فمه درأً عمارة اليمني، وكان من أشهر الشعراء على الإطلاق، وهو من درجة المتنبي، سافر من مكة إلى الفاطميين في مصر، يقول:

فَهَلْ دَرَى النَّبِيْتُ أَنِّي بَعْدَ فُرْقَتِهِ      مَا سِرْتُ إِلَّا مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمٍ  
حَيْثُ الْخِلَافَةُ مَبْسُوطٌ صَوَادِقُهَا      تَجْنِي الْبَغِيضِينَ مِنْ ظَلَمٍ وَمِنْ ظَلَمٍ  
وَلِلرَّسَالَةِ أَنْوَارٌ مُقَدَّسَةٌ      تُبْدِي الْحَبِيبِينَ مِنْ حُكْمٍ وَمِنْ حَكَمٍ  
لَيْتَ الْكَوَاكِبُ تَدْنُو لِي فَأَنْظِمَهَا      عُقُودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لَكُمْ كَلِمِي

يقول: ليت النجوم تنزل علينا قليلاً، فأنظمها قصائد وأعطيكم إياها. القصيدة رائعة بلا شك، لكنه أتى بقصيدة أخرى يمدح فيها الفائز الحاكم الفاطمي في مصر، يقول:

وَإِذَا لَثَمْتُ يَمِينَهُ <sup>(١)</sup> وَخَرَجْتُ مِنْ      أَبْوَابِهِ لَثَمَ الْمُدُوكِ يَمِينِي

هذا نفاق اجتماعي مبالغ فيه يريد الجائزة، قال: امحُ القصيدة واترك هذا البيت واملؤوا فمه درأً. هذا هو عمارة اليمني، قتله صلاح الدين الأيوبي؛ لأنه أراد مع بعض الناس إعادة دولة الفاطميين، الدولة المنحرفة عن الجادة، وأن يعادي السلطان العادل والإمام الحق صلاح الدين الأيوبي الكردي الذي نصر

(١) أي: قبّلت.



## املؤوا فمه درأ

اللَّهِ بِهِ الْإِسْلَامَ، فَاسْتَحَقَّ الْإِعْدَامَ، فَأَعْدَمَ هَذَا الشَّاعِرَ، وَكُلَّهُمْ سَوْفَ يَنْهَبُونَ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ؛ الْقَاتِلَ وَالْمَقْتُولَ فَهُوَ يَوْمَئِذٍ أَحْكَمُ مِنْ يَعْذَلُ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

جلس المتوكل ليلة من الليالي ولبس برد الرسول ﷺ الذي توارثه خلفاء بني العباس، فقال: من يصف هذا المشهد وأنا لابس البرد؟ وكان الشعراء جلوساً، فقام أحدهم وقيل: هو ابن الشجري. وقيل غيره. فقال:

وَلَوْ أَنَّ بُرْدَ الْمُصْطَفَى إِذْ لَبِسْتَهُ      يَظُنُّ لَظَنَّ الْبُرْدُ أَنَّكَ صَاحِبُهُ  
وَقَالَ - وَقَدْ أُوتِيَتْهُ وَلَبِسْتَهُ -      : نَعَمْ، هَذِهِ أُعْطَاهُ وَمَنَاكِبُهُ

قال: املؤوا فمه درأ.

وسرعة البداهة موهبة من الله، وبالمناسبة فإن أبا جعفر المنصور أشهر خلفاء بني العباس، خرج للسير والنزهة، وقال للشعراء - وكان معه ما يقرب من ثلاثين شاعراً منهم بشار بن برد - : مَنْ يُجِيزُ هَذَا الْبَيْتَ الَّذِي أَقُولُ وَيَأْتِي بَيْتَ عَلِيٍّ الْبَحْرِ وَالْقَافِيَةَ وَأُعْطِيَهُ هَذَا الْبُرْدَ الَّذِي عَلِيٌّ؟ قَالُوا: قَلَّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

فقال:

وَهَاجِرَةٌ وَقَفْتُ بِهَا قُدُوصِي      يُقَطِّعُ حَرْهَا ظَهَرَ الْعَضَائِيهِ (١)

فسكت الشعراء، فقالوا: أعد يا أمير المؤمنين. فقال:

وَهَاجِرَةٌ وَقَفْتُ بِهَا قُدُوصِي      يُقَطِّعُ حَرْهَا ظَهَرَ الْعَضَائِيهِ

معنى هذا البيت: ما أشد هذه الهاجرة وهذه الظهيرة التي نحن فيها! أشدة النهار التي وقفت بها أنا وناقتي، حتى لو كان هذا الحر على ظهر السلحفاة - مع

(١) العضاية: قيل: السلحفاة. وقيل نحوها.



أن ظهرها شديد قوي - لقطعها، فكيف أنا؟! فقالوا: أعد. فلما أعاد جثوا على رُكبتهم أيهم يرد أولاً. فقال أحدهم:

وَقَفْتُ بِهَا الْفُلُوصَ فَمَاضَ دَمْعِي      عَدَسَ خَدِّي فَأَقْصَرَ وَأِعْظَايَ

فأعطاه أبو جعفر البرد، فشراه بنو العباس بألف دينار منه وأخذوا البرد؛ برد الخليفة.

وممن ملىّ فمه دراً أحد الشعراء، مدح جعفر بن فلاح وهو قائد فاطمي من قادة الفاطميين، لقيه الشاعر، فقال:

كَانَتْ مُحَادَذَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنَا      عَنْ جَعْفَرِ بْنِ فَلَاحِ أَرْوَعَ الْخَبْرِ  
حَتَّى التَّقِينَا فَلَا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ      أُذُنِي بِأَحْسَنِ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصْرِي

يقول: كنا نسمع عنك ولما التقتنا كنت أكبر. وهذا من ترتيب الألفاظ الجميلة، ومما يعجبني في ذلك أبيات نظمها أحد العلماء من أهل الحديث، وبعض أهل الحديث يَرزق مع العلم شعراً، ومنهم أبو وردى المحدث الكبير، كان شاعراً من درجة المتنبى بلا مبالغة، وهو الذي يقول:

تَسْتَرْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ      فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي  
فَلَوْ تَسْأَلُ الْأَيَّامَ عَنِّي مَا دَرَتْ      وَأَيِّنَ مَكَانِي مَا عَرَفَنَ مَكَانِي

وأحد المحدثين من الشعراء يقول:

مَنْ زَارَ بَابَكَ لَمْ تَبْرَحْ جَوَارِحُهُ      تَرَوِي أَحَادِيثَ مَا أُورِدَتْ مِنْ مَنْ  
فَالْعَيْنُ عَنْ قُرَّةٍ وَالْكَفُّ عَنْ صَلَاةِ      وَالْقَلْبُ عَنْ جَابِرٍ وَالسَّمْعُ عَنْ حَسَنِ

فهؤلاء رواة حديث، مثل: قرّة بن خالد المشهور، وصلة بن الأشين عالم كبير، وجابر بن عبد الله «الصحابي المشهور» والحسن البصري. فنظمهم؛ لأنهم في السند.

## املؤوا فمه درأ

وممن ملئ فمه درأ شاعر يقال له: تميم الأمير. وكان تميم أميراً جواداً من أكبر الأمراء على الإطلاق، فيقولون: تميم بن دُبَيْس، أو غيره. يقول فيه شاعر عارف بعلم السند:

أَصْحُ وَأَعْلَى مَا سَمِعْنَا فِي النَّدَى      مِنْ الْأَثَرِ الْمَعْرُوفِ مُنْذُ قَدِيمِ  
أَحَادِيثُ تَرْوِيهَا السُّيُولُ عَنِ الْحَيَا      عَنِ الْعَيْثِ عَنِ كَفِّ الْأَمِيرِ تَمِيمِ

فأجازه جائزة، وقال: املؤوا فمه درأ.

وصارت شهرة لهؤلاء؛ لأنهم خلدوا شعرهم فيمن مدحهم.

وزهير من أعظم من مدح آل هرم بن سنان، حتى يقول:

مَا كَانَ مِنْ خَيْرِ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا      تَوَارَكَهُ أَبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ  
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِيئُ إِلَّا وَشِيجَهُ      وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَغَارِسِهَا النَّخْلُ

وهذا أولى أن يملأ فمه درأ؛ لأنه قال فيهم كلمة صادقة، وما كان يقول فيهم إلا الحق. واختلف أهل الأدب عند الأصمعي وغير الأصمعي، تراه يفضل النابغة الذبياني على زهير، على أن زهير عاقل حكيم، لكن النابغة مؤثر في شعره، قيل للأصمعي: أيهما أشعر زهير أو النابغة؟ قال: النابغة، النابغة إن قلت: شعره حرير فهو حرير، وإن قلت: أئين من الحرير فأئين من الحرير، وإن قلت: أقوى من الحديد فأقوى من الحديد. ومن ذلك قوله:

أَتَانِي أُنْبِتَ اللَّعْنُ أَنْكَ لُمْتَنِي (١)      وَتِلْكَ الَّتِي أَهْتَمُّ مِنْهَا وَأَنْصَبُ  
فَبِتُ كَأَنَّ الْغَانِيَاتِ فَرَشْنَ لِي      هَرَأَساً بِهِ يَغْلُو فِرَاشِي وَيَقْشَبُ  
حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رَيْبَةً      وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ

(١) يقصد النابغة الذبياني.

وَأَنْ بَلَغَ الْوَأَشُونَ عَنِّي وَشَايَةَ  
لَمْ بَلِّغْكَ الْوَأَشِي أَغْشُ وَأَكْذِبُ  
وَكُنْتُ بِمُسْتَبْقٍ أَحْأَ لَا تَلْمُهُ  
عَلَى شَعْتِ أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهْدَبُ؟

هذا البيت الأخير مؤثر وبديع وهو رسالة اجتماعية، يقول: لن يبقى لك صديق ما دمت لا تقبله على زلاته، تقبله على علاته، تقبله على الأخطاء فيه.

تلمه على شعته، أي: تستر عليه وتحاول أن تصلح ما بينك وبينه. ثم قال: أي الرجال منهدب؟ هل رأيت عوداً يفوح بلا دخان؟ هل رأيت إنساناً معصوماً؟ إلا الأنبياء -عليهم السلام-.

مَنْ ذَا الَّذِي مَاءَ سَاءَ قَطُ  
وَمَنْ لَهُ الْحُسْنَى فَقَطُ

ومن ذلك قول الشاعر بشار بن برد:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَاراً عَلَى الْقَدَى  
ظَمِمْتُ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ؟  
إِذَا كُنْتُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِباً  
صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقُ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهُ

فينبغي للإنسان أن يفض الطرف عن صاحبه وصديقه، ويقبله على زلله وعلى عله؛ ليستمر، أما أن تريد مذنباً لا عيب فيه، فهل عود يفوح بلا دخان؟

حتى إن لهم أيماناً فاجرة وبارة؛ فامرؤ القيس يمينه فاجرة عند الأدباء والحكماء؛ لأنه يقول:

حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ حَلْفَةَ فَاجِرٍ  
لِنَأْمُوا فَمَاءٍ مِنْ حَدِيثٍ وَلَا صَالٍ

في لاميته التي فضلها الزمخشري على لاميته المعلقة، التي من ضمن أبياتها

يقول:

أَلَا عِمَّ صَبَاحاً - أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي -  
وَهَلْ يِعْمَنُ مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرِ الْخَالِي

وَهَلْ يَعْمَنُ إِلَّا سَعِيدٌ مُنْعَمٌ      قَلِيلُ الْهُمُومِ مَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ  
حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ حَلْفَةً فَاجِرٍ      لَنَامُوا فَمَاءٍ مِنْ حَدِيثِ وَلَا صَالِ

هذه اليمين الفاجرة، أما اليمين البارة، فهي من النابغة الذبياني، حيث يقول:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً      وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ  
وَإِنْ بَلَغَ الْوَأَشُونَ عَنِّي وَشَايَةَ      لَمَبْلَغِكَ الْوَأَشِي أَعْشَى وَأَكْذَبُ

أي: إن الذي بلغك كذاب؛ لأنه يريد الإفساد بينك وبينني، ولو كان حكيماً لبلغك حسناً، فأول المعتابين لك والسابيين لك هو من بلغك الوشاية ومن بلغك السب من صاحبك، فمن بلغك السب فكأنما سبك، ومن بلغك الشتم فكأنما شتمك، والواجب في الشرع أن تكذِّبه وأن تثبت من الأخبار ولا تقبل روايته؛ لأنه ما أراد إلا السوء والإفساد. حتى إنه رضي الله عنه يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَ كُرْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَدِيمِينَ﴾ [الحجرات: 16]. فمنطق الإسلام التبين والتعاطف عن زلات الإخوان؛ حتى يصلح الحال، فكن كأنك لم تسمع ولم يقل.

أما إكرامات الشعراء فتختلف من شاعر إلى شاعر بحسب ما أُوتي، وقيل: من أكبر الجوائز هي جائزة علي بن جيلة لأبي دُكف. لأن أبا دلف لما سمع قصيدته المشهورة التي يقول فيها:

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُكْفٍ      بَيْنَ بَادِيِهِ إِلَيَّ حَضْرِهِ  
فَإِذَا وَكَلَى أَبُو دُكْفٍ      وَكَلَتِ الدُّنْيَا عَلَيَّ أَكْرَهُ

قال: أَحْبَبْتُكَ فِي ثَلَاثٍ: أَنْ تَقَاسِمَنِي فِي الْإِمَارَةِ، أَوْ تَحْتَكِمَ أَنْتَ، أَوْ أَنْ أُعْطِيَكَ عَلَى كُلِّ بَيْتٍ (١٠٠٠٠٠٠ درهم). قال: أُعْطِيَ عَلَيَّ كُلِّ بَيْتٍ (١٠٠٠٠٠٠ درهم) ٩. فأخذ المال، ثم قتله المأمون؛ بسبب هذه القصيدة.

والعجيب أن أبا منصور الحاجب أعطى المتنبّي ديناراً على قصيدته، وكان هذا بخيالاً جداً، فمدحه المتنبّي بأحسن قصائده، يقول:

بأبي الشُّمُوسِ الجَانِحَاتِ عَوَارِبًا      الدَّابَّسَاتِ مِنَ الخُدُودِ جَلَابِيَا

ثم يقول: فسموك الأبي الحاجب. يقصد الحاجب أعطاه ديناراً فتسمى هذه القصيدة: الدينارية. وهي من أحسن قصائده لكن البخل عند بعض الناس بالعطاء طبع.



## مدائح نبوية

رسول الهدى ﷺ بأبي هو وأمي أجل  
من خلق الله، وأكرمهم وسيدهم وخيرهم،  
ولكنه ﷺ يقول لأمته: «لَا تَطْرُقُونِي كَمَا أَطْرَقَ  
النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ  
وَرَسُولُهُ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ». لكنه يثنى  
عليه ﷺ بالمكارم، وقد أثنى عليه ربه: ﴿وَإِنَّكَ  
لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وهناك مدائح نبوية  
حفظها لنا تاريخ الأدب العربي، بدأها كعب بن  
زهير الذي عاصر رسول الهدى ﷺ يقول فيها:

بَانَتْ سَعَادُ قَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولُ      مُتَيِّمٌ إِشْرَاهَا لَمْ يُضِدْ مَكْبُولُ

ثم قال:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ      مُهَيِّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْنُولُ  
تَبَيَّنْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي      وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ

إلى آخر القصيدة، التي أطلق عليها اسم «البردة»؛ لأنه يُروى في السياق أن الرسول ﷺ خلع بردته لزهير بن وهب؛ لما قال هذه القصيدة.

وفي عهده ﷺ مِدْحٌ، حتى إن هناك بيتين يتيمين شاردين من قوتهما يقول صاحبهما:

يَا مَنْ تَضَوَّعَ طِيبِ الْقَاعِ أَعْظَمُهُ      فَطَابَ مِنْ طِيبِ ذَاكَ الْقَاعِ وَالْأَشْمُ  
نَفْسِي الضِّدَاءُ بِقَبْرِ أَنْتَ سَاكِنُهُ      فِيهِ الْعَفَافُ وَفِيهِ الْجُودُ وَالْكَرْمُ

ثم استمر الشعراء في مدائحهم للرسول ﷺ، حتى أتى البوصيري لكنه غالى في المدح، فقصيدته من حيث الجمال الفني، ومن حيث التركيب البلاغي، ومن حيث الفصاحة مشرقة فصيحة جداً، يقول:

أَمِنْ تَذَكَّرِ جِيرَانَ بِنْدِي سَلِمَ      مَرَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِنْدِي  
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ كَاظِمَةٍ      وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلْمَاءِ مِنْ إِضْمِ  
فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ الْكَفْأَ هَمَّتَا      وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ: اسْتَفَقَ بِهِم

ومدح رسول الله ﷺ، ثم جاء أحمد شوقي وسمى قصيدته: نهج البردة.

التي مطلعها:

رِيحٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ النَّبَانِ وَالْعَلَمِ      أَحَلَّ سَفَكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ  
رَمَى الْقَضَاءُ بَعَيْنِي جُودِرِ أَسَدَا      يَا سَاكِنِ الْقَاعِ، أَدْرِكْ سَاكِنِ الْأَجْمِ

إلى أن يقول في مدح سيد الخلق ﷺ:

أُسْرَى بِكَ اللهُ لَيْلًا إِذْ مَلَائِكُهُ  
لَمَّا خَطَرَتْ بِهِ التَّفْوَا بِسَيِّدِهِمْ  
حَتَّى بَلَغَتْ مَكَانًا لَا يُطَارُ لَهُ  
وَقِيلَ: كُلُّ نَبِيٍّ عِنْدَ رُتْبَتِهِ  
مَوْلَايَ صَلِّ وَسَلِّمْ مَا أُرِدْتَ عَلَى  
وَالرُّسُلُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى عَلَى قَدَمِ  
كَالشُّهْبِ بِالْبَيْتِ أَوْ كَالْجُنْدِ بِالْعَلَمِ  
عَلَى جَنَاحٍ وَلَا يُسَعَى عَلَى قَدَمِ  
وَيَا مُحَمَّدُ، هَذَا الْعَرْشُ فَاسْتَمِ  
نَزِيلِ عَرْشِكَ خَيْرِ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ

وهي طويلة، وأجمل منها قصيدة البوصيري.

وقد نظمت قصيدة اسمها: تاج المدائح فيه ﷺ من ضمن أبياتها على البحر

والصافية:

أَنْصَبْتُ لِمِيمِيَّةٍ جَاءَتْكَ مِنْ أُمَّمِ  
سَأَلْتُ قَرِيحَةً صَبَّ فِي مَحَبَّتِكُمْ  
يُزْرِي بِدَابِغَةِ النُّعْمَانِ رَوْنُقُهَا  
مِيمِيَّةٌ لَوْ فَتَى بُوَصِيرَ أَبْصَرَهَا  
مَا زَارَ سَوْقَ عُكَازٍ مِثْلَ طَلْعَتِهَا  
أَنْنِي عَلَى مَنْ؟ أَنْدَرِي مَنْ أَبْجَلُهُ؟  
فِي أَثْبَتِ النَّاسِ قَلْبًا غَيْرَ مُنْتَقِمِ  
فَحَطَّانُ عَدْنَانُ شَانُوا مِنْكَ عَزَّتْهُمْ  
عُقُودُ نَصْرِكَ فِي بَدْرِ وَفِي أَحَدِ  
مَنْ نَحْنُ قَبْلَكَ إِلَّا نُقْطَةٌ عَرَفَتْ  
أَكَاذُ أَقْتَلِحُ الْأَهَاتِ مِنْ حُرْقِ  
مِدَادُهَا مِنْ مَعَانِي نُونٍ وَالْقَلَمِ  
فَيْضًا تَدْفُقُ مِثْلَ الْهَاطِلِ الْعَمَمِ  
وَمَنْ زُهَيْرٌ وَمَاذَا قَالَ فِي هَرَمِ؟  
لَعَوْدُوهُ بِرَبِّ الْحِلِّ وَالْحَرَمِ  
هَامَتْ قُلُوبٌ بِهَا مِنْ رَوْعَةِ النِّعَمِ  
أَمَا عَلِمْتَ بِمَنْ أَهْدَيْتُهُ كَلِمِي؟  
وَأَصْدَقِ النَّاسِ لَفْظًا غَيْرَ مُتَّهِمِ  
بِكَ التَّشْرُفُ لِلتَّارِيخِ لَا بِهِمِ  
وَعَهْدُنَا فِيكَ لَا فِي هَيْئَةِ الْأَمَمِ  
فِي الْيَمِّ أَوْ دَمْعَةَ خُرْسَاءُ فِي الصَّدَمِ  
إِذَا ذَكَرْتُكَ أَوْ أَرْتَاعٍ مِنْ نَدَمِ

إِنْ كَانَ أَحَبَّبْتُ بَعْدَ اللَّهِ مِثْلَكَ فِي      بَدُوٍ وَحَضِرٍ وَفِي عُرْبٍ وَفِي عَجَمٍ  
فَلَا اشْتَقِي نَاطِرِي مِنْ مَنْظَرِ حَسَنِ      وَلَا تَضَوُّهُ بِالْقَوْلِ السَّيِّدِ فَمِي

الرسول ﷺ يجمع في مدحه الدواوين والكتب والمجلدات من القصائد التي مُدِّحَ بها ﷺ، وقام بعض الأدباء بجمع القصائد فأربت على المئات إلى خمس مئة، وربما لو جُمِعَت لصارت أكثر من ألف قصيدة خلاف المقطوعات والأبيات، ومن أحسن ما مُدِّحَ به سيد الخلق ﷺ قصيدة لعبد الله البردوني شاعر اليمن، في قصيدة يتكلم فيها عن الغار، لكنها بسمو وجمال وبقوة، وهو من أكبر الشعراء المعاصرين، يقول:

بُشْرَى مِنَ الْغَيْبِ أَلْقَتْ فِي فَمِ الْغَارِ      وَخِيَاءٌ وَأَفْضَتْ إِلَى الدُّنْيَا بِأَسْرَارِ  
بُشْرَى النُّبُوَّةِ طَافَتْ كَالشَّدَا سَحْرًا      وَأَعْلَمَتْ فِي الدُّنْيَا مِيلَادَ أَنْوَارِ  
وَشَقَّتِ الصَّمْتِ وَالْأَنْسَامِ تَحْمِلُهَا      تَحْتَ السَّكِينَةِ مِنْ دَارِ إِلَى دَارِ  
وَهَدَهَدَتْ مَكَّةَ الْوَسْنَى أَنْامِلُهَا      وَشَقَّتِ الْكُونَ إِيذَانًا بِإِسْفَارِ  
فَأَقْبَلَ النُّورُ مِنْ خَلْفِ التَّلَالِ وَفِي      عَيْنَيْهِ أَسْرَارُ عُشَاقِ وَسَمَارِ  
وَسَبَّ طِفْلُ الْهُدَى الْمَحْبُوبِ مُتَشَحًّا      بِالْخَيْرِ مُتَزِنًا بِالنُّورِ وَالنَّارِ  
فِي كَفِّهِ شُعْلَةٌ تَهْدِي وَفِي دَمِهِ      عَقِيدَةٌ تَتَحَدَّى كُلَّ جَبَّارِ  
أَعْلَى الْمَنَاصِبِ مَا حَاكَتْ لِصَاحِبِهَا      مِنَ الْعُلَا وَالْمَعَالِي نَصَبَ تَذْكَارِ  
طِبَهُ إِذَا دَارَ إِنْشَادِي فَإِنَّ أَبِي      حَسَّانَ أَخْبَارُهُ فِي الشَّامِ أَخْبَارِي  
أَنَا ابْنُ أَنْصَارِكَ الْغُرِّ الْأَى سَحَفُوا      جَيْشَ الطُّغَاةِ بِجَيْشِ مِنْكَ جَرَارِ  
إِذَا تَذَكَّرْتَ عَمَّارًا وَسِيرَتَهُ      فَأَفْحَرْنَا؛ إِنَّا أَحْفَادُ عَمَّارِ

والزبيري له قصيدة في مدحه ﷺ مطلعها:



## مدائح نبوية

السَّمَاوَاتِ شَيْخَاتٍ ظَمَاءُ وَالغُضَا وَالنُّجُومُ وَالْأَنْوَاءُ  
كُلُّهَا لَهْفَةٌ إِلَى الْمُصْطَفَى الْهَادِي وَشَوْقٌ وَعِزَّةٌ وَذِنَاءُ

وقد نظمت على قافية هذه القصيدة قصيدة قلت فيها:

أَيُّهَا الشِّعْرُ أَنْتَ، أَنْتَ الْحِدَاءُ غَنِّ شِعْرًا تُصْغِي إِلَيْهِ السَّمَاءُ  
فَدَنْتَ لِلْحَقِّ سَاطِعًا يَفْضُحُ الْبُهَاءُ تَنَانٌ فَالْحَقُّ عِزَّةٌ شَمَاءُ

وهناك شاعر من سوريا مشهور اسمه عبد الهادي حرب، مدح سيد الخلق ﷺ

بقصيدة من ضمنها يقول:

إِنَّ الْبَرِيَّةَ يَوْمَ مَبَعَثَ أَحْمَدِ نَظَرَ الْإِلَهِ لَهَا فَبَدَّلَ حَالَهَا  
بَلْ كَرَّمَ الْإِنْسَانَ حِينَ اخْتَارَ مِنْ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ نَجْمَهَا وَهَلَالَهَا  
لَبَسَ الْمُرْقَعُ فَهُوَ قَائِدُ أُمَّةٍ جَبَّتِ الْكُنُوزَ فَكَسَّرَتْ أَغْلَالَهَا  
لَمَّا رَأَاهَا اللَّهُ تَمْشِي تَحْوَهُ لَا تَبْتَغِي إِلَّا رِضَاءَهُ سَعَى لَهَا  
أَنْتَ الشُّجَاعُ إِذَا لَقِيتَ كَتِيبَةً أَذْبَتَ فِي هَوْلِ الرَّدَى أَبْطَالَهَا  
وَإِذَا وَعَدْتَ وَفَيْتَ فِيمَا قُلْتَهُ لَا مَنْ يُكَذِّبُ قَوْلَهُ أَفْعَالَهُ

فهو ﷺ ممدوح في ذلك، وإنما أقف مع المدح من ذكريات إسلامية مع سيد

الخلق ﷺ، فقد أتاه رجل اسمه الأسود بن سريع، قال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي نَظَّمْتُ

قَصِيدَةً أَنْتَ بِهَا عَلَى رَبِّي. فَقَالَ ﷺ: «أَمَا إِنَّ رَبَّكَ يُحِبُّ الْمَدْحَ». ولذلك كان ﷺ

يحب أن يكون المدح في ربه، فאלله أهل أن يُمدح وأهل أن يُشكر وأن يحمده ﷺ،

وأهل أن يُبجل لا إله إلا هو، حتى إنه ﷺ مدح نفسه، وعند مسلم: «لَا أَحَدٌ أَحَبُّ

إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ وَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ». فالرسول ﷺ كان يسمع المدح، حتى إن

ابن رواحة ﷺ قال:



لَوْلَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُّبَيِّنَةٌ لَكَانَ مَنظَرُهُ يُنْبِئُكَ بِالْخَبَرِ

وقال في قصيدة أخرى:

فُتِّبَتِ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنِ تَنْبِئَتْ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نَصِرُوا

قال عليه السلام: «وَأَيُّكَ فَتِّبَتْ». وجاءه عليه السلام النابغة، نابغة بني جعدة، فأتى بمدح قومه؛ ليتوصل بمدح الرسول عليه السلام، فقال:

تَذَكَّرْتُ وَالذِّكْرَى تَهِيحُ عَلَى الْفَتَى وَمِنْ عَادَةِ الْمُحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا  
بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدَنَا وَجُدُودَنَا وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

فقال عليه السلام: «إِلَى أَيْنَ - يَا أَبَا لَيْلَى؟ قَالَ: إِلَى الْجَنَّةِ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ عليه السلام: «لَا فَضْلَ فُؤُوكَ». فعاش مئة سنة ما سقط له سن ولا ضرر؛ من فضل وبركة دعاء الرسول عليه السلام، وكان يسمع الشعر ويأبى الغلو عليه السلام لكنه يسمعه ويقول: «إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةً». ويسمع لحسان عليه السلام.

ولما جاءه وفد بني تميم وكانوا ما يقارب العشرة، وقيل: أكثر. وكان خطيبهم عمرو بن الأثم وشاعرهم الزبيرقان بن بدر، ومعهم قيس بن عاصم المُنْقَرِي حلِيم العرب، فقدموا فقالوا: نريد أن تُفَاخِرَكَ. وعادة العرب إذا قدموا على الملوك أنهم يُفَاخِرُونَ، وكل قبيلة تُفَاخِرُ، فأذن لهم عليه السلام ودُعوا في المسجد وخطيبهم، ودُعِيَ خطيب الرسول عليه السلام الذي هو ثابت بن قيس بن شماس عليه السلام فتكلم خطيبهم وكان مصقماً وهو عمرو بن الأثم، فلما انتهى قال عليه السلام: «فَمَ - يَا ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ - فَرُدُّ عَلَيْهِمْ». وهو الأنصاري الذي قُتِلَ شهيداً في اليمامة، فقام فأتى بكلام كأنه صواعق من على المنبر، حتى غلبه، فقام شاعرهم الزبيرقان بن بدر، وقال القصيدة، حتى إنه قال:

مِنَّا الْمُلُوكُ فَلَا حَيٍّ يُضَارِعُنَا مِنَّا الْمُلُوكُ وَفِينَا تُنْصَبُ الْبَيْعُ

إلى آخر ما قال، فقال ﷺ: «قُمْ يَا حَسَّانُ». فقام حسان في الحال مباشرة على البدهاة، وقال - في قصيدة طويلة -:

إِنَّ الذُّوَانِبَ مِنْ فَهْرٍ وَإِخْوَتِهِ      قَدْ بَيَّنُّوا سُنَّةَ لِلنَّاسِ تَتَّبَعُ  
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ عَقِيدَتُهُ      تَقْوَى إِلَهِهِ وَيَا أَمْرَ الَّذِي شَرَعُوا  
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرَبُوا عُنُوقَهُمْ      أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا

إلى أن يقول:

كَأَنَّهُمْ فِي الْوَعَى وَالْمَوْتُ مُكْتَنَعٌ      أُسْدٌ بَبِيشَةٌ فِي أَرْسَائِهَا فَدَعُ  
سَجِيَّةٌ تَدَكُ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ      إِنَّ الْخَالِئِقَ حَقًّا شَرُّهَا الْبِدَعُ  
لَا يَرْفَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ      عِنْدَ الدِّفَاعِ وَلَا يُوهُونَ مَا رَقَعُوا

إلى آخر ما قال.

فقالوا: «غَلَبَ شَاعِرُكَ شَاعِرَنَا وَخَطِيبُكَ خَطِيبَنَا». وحسان رضي الله عنه شاعر النبي ﷺ. وكان الرسول ﷺ يقرب له المنبر ويقول عن المشركين: «اهْجُهُمْ وَمَعَكَ رُوحُ الْقُدْسِ يُؤَيِّدُكَ». وحسان رضي الله عنه لما قال له: «كَيْفَ أَنْتَ يَا حَسَّانُ؟». أي: هل تستطيع للمشركين مجابهة بالرد؛ لأن رد الشعر بالشعر والأدب بالأدب والحجة بالحجة، فأخرج حسان رضي الله عنه لسانه وضرب أرنبة أنفه، وقال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَعِيَ هَذَا لَوْ وَضَعْتَهُ عَلَى حَجَرٍ لَفَلَقَهُ وَلَوْ وَضَعْتَهُ عَلَى شَعْرٍ لَحَلَقَهُ». فكان حسان رضي الله عنه من أجود الناس شعراً هو، وحسان عند الملوك الفسائنة قبل الإسلام يذهب إلى الفسائنة حتى يحن لتلك الأيام والديار، لكن أبدله الله ﷻ بخير من ذلك، الإسلام ومحمد سيد الخلق ﷺ، لكن من وفائه يعترف لهم بأنهم أهل كرم في غسان في الشام، فيقول:

لِللَّهِ دَرُ عَصَابَةٍ نَادَمْتُهُمْ      يَوْمًا بَجَلَقَ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ  
 أَبْنَاءُ جَفَنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ      قَبْرًا بِنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ  
 يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كِلَابُهُمْ (١)      لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ  
 الضَّارِبُونَ الْكَبْشَ يَبْرُقُ بَيْضَةً (٢)      ضَرْبًا يُطِيحُ لَهُ بِنَانِ الْمُفْصَلِ

حتى على مذهب النابغة يقول عن عمرو بن هند، وقيل: عن النعمان:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سُوْفُهُمْ      بِهِنْ فُلُودٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ  
 تُورَثُنْ مِنْ أَرْمَانِ يَوْمِ حَلِيمَةَ      إِلَى الْيَوْمِ قَدْ جُرِبْنَ كُلَّ التَّجَارِبِ

لأن العرب إذا مدحوا الإنسان مدحوه بأمه أو بجده، ومن ذلك قول جرير

يمدح عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه:

وَمَا كَعْبُ بْنُ أَمَامَةَ وَابْنُ سَعْدٍ      بِأَكْرَمِ مِنْكَ يَا عُمَرُ الْجَوَادِ  
 تَعَوَّذَ صَالِحِ الْأَخْلَاقِ إِنِّي      رَأَيْتُ الْمَرْءَ يَلْزَمُ مُسْتَعَادَا

فقال في القصيدة: يا ابن ليلي. وابن ليلي هو عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لأن

ليلى هي أمه فهم يمدحون هذا بهذا، ولهذا يقول:

تُورَثُنْ مِنْ أَرْمَانِ يَوْمِ حَلِيمَةَ      إِلَى الْيَوْمِ قَدْ جُرِبْنَ كُلَّ التَّجَارِبِ

إِذَا عَلِمَ هَذَا فَالرسول صلى الله عليه وسلم قد مدحه ربه، وأغناه مدح الله عز وجل عن مدح كل  
 أحد حتى قال: ﴿فِيمَا رَحِمَةً مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْقَضُوا  
 مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وَرَكِّي سَمِعَهُ وَرَكِّي بَصْرَهُ وَرَكِّي مِنْهُجَهُ وَرَسَالَتَهُ  
 وَدَعْوَتَهُ، وَقَالَ: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَاضَلَّ صَاحِبِكُمْ وَمَا عَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ

(١) أي: من كثرة الضيوف تعبت كلابهم فصارت لا تنبح، تعودت الناس.

(٢) الكبش، أي: سيد القتال، أو سيد الكتابة يبدؤون به في المعركة. فوصفهم بالكرم وبالشجاعة.

﴿الهمزة﴾ [النجم: ١-٣]. وقال له: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. وذكر دعوته ومنهجه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. فإذا عَلِمَ هذا فإنه لا ينبغي أن يمدح ﷺ بأكثر مما أقامه ربه ﷻ من المنزلة، أو يُعَالَى فيه بأن يقال: شافني أو عافني.

ومن ذلك أن البرعي من اليمن، لما وصل إلى قبر رسول الله ﷺ قال:

يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا مَنْ ذَكَرَهُ فِي نَهَارِ الْحَشْرِ رَمَزًا وَمُقَامًا  
فَأَقْلَبْنِي عَثْرَتِي يَا سَيِّدِي .....

وهذا شرك لا ينبغي؛ لأنه ﷺ لا يُحْيِي ولا يَمِيت ولا يشافي ولا يقبل العثرة ولا يقفر الذنوب، إنما هو مبلغ ﷺ عن ربه، وقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ويذكر ابن العربي الصوفي - يذكر عن بعض المشايخ - يقول: أتيت المدينة فدخلت، فلما اقتربت فسلمت فمددت يدي فانشق القبر وسلم علي ﷺ وصافحني. وهذا كذب، حتى إنه نظم في ذلك بيتين، فقال:

فِي حَالَةِ الْبُعْدِ نَفْسِي كُنْتُ أَرْسِلُهَا  
وَهَذِهِ دَوْلَةُ الْأَشْبَاحِ قَدْ حَضَرَتْ  
تُضَلُّ الْأَرْضَ عَنْكُمْ وَهِيَ رَائِدَتِي  
فَأَمْدُ يَمِينِكَ كَيْ تَحْطَى بِهَا شَفْتِي

قال: فمد يده فقبلتها. وهذا كله كذب وزور، ورسول الله ﷺ قد بلغ الرسالة، وهو في قبره حي ﷺ حياة تليق به، فإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، لكن يبلغه سلامنا وصلاتنا، يقول ﷺ: «أَكثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ وَيَوْمَ الْجُمُعَةِ؛ فَإِنَّ صَلَاتِكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ». قالوا: كَيْفَ تُعْرَضُ عَلَيْكَ صَلَاتُنَا - يَا رَسُولَ اللَّهِ - وَقَدْ أَرَمْتَ<sup>(١)</sup>. قال: إِنْ اللَّهُ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ

(١) أي: بليت.

أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ». فهو ﷺ تُعْرَضُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَيُرَدُّ اللَّهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ، فَيَسْلَمُ عَلَى مَنْ سَلَّمَ عَلَيْهِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ مَا ذَكَرَهُ الذَّاكِرُونَ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ مَا غُفِلَ عَنْ ذِكْرِهِ الْغَافِلُونَ، وَإِنَّمَا قَصْدِي بِهَذَا أَنْ بَعْضَ النَّاسِ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ إِذَا غَالَى وَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُشَافِي وَيُعَافِي وَيَجْلِبُ الضَّرَّ وَالنَّفْعَ، وَإِنِّي ذَاهِبٌ إِلَيْهِ. كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ النَّاسِ الْجَهْلَةَ وَالْمَبْتَدِعَةَ، قَالَ: أَذْهَبُ إِلَيْهِ وَأُخْبِرُهُ أَنَّ ابْنِي مَرِيضٌ فَيُشَافِي ابْنِي، وَأَنَّ زَوْجَتِي عَقِيمٌ لَعَلَّهَا تَنْجِبُ. كُلُّ هَذَا مِنَ الْخِرَافَاتِ، رَسُولُنَا ﷺ عَبْدٌ، وَرَسُولٌ، مَهْمَتُهُ الْبِلَاغُ مِنْ رَبِّهِ بِالْوَحْيِ، وَقَدْ بَلَغَ ﷺ وَأَدَّى مَا عَلَيْهِ وَنَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يَجْمَعَنَا بِهِ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى، حَتَّى يَقُولَ:

هَذَا الَّذِي جَاءَ وَالْأَنْبَحَارُ مَالِحَةً      فَمَجَّ فِيهَا فَصَارَ الْمَاءُ كَالْعَسَلِ  
هَذَا الَّذِي رَدُّ عَيْنًا بَعْدَ مَا فُقِّتَتْ      وَرَيْقُهُ قَدْ شَفَى عَيْنَ الْإِمَامِ عَلِيِّ

فَهُوَ لِبَرَكَّتِهِ ﷺ صَارَتْ أَثَارُهُ مَبَارَكَةً، وَلَيْسَ هَذَا إِلَّا لَهُ ﷺ، فَلَا يَأْتِي أَحَدٌ وَيَقُولُ: إِنَّ بَسَاطَهُ أَوْ بَشْتَهُ أَوْ ثَوْبَهُ أَوْ سَوَاكِهِ. هَذَا لِلرَّسُولِ ﷺ فَقَطْ، حَتَّى لَيْسَ لِلصَّحَابَةِ ﷺ وَلَا لِأُمَّةِ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَدَّعِهِ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ، إِنَّمَا هَذَا خَاصٌّ بِسَيِّدِ الْخَلْقِ ﷺ.



## علو الهمة

الهمة العالية إذا وُجِدَتْ في الشخص بوأته  
المنازل العالية، سواء في الدين أو في الدنيا،  
والله ﷻ أعطانا أصول الهمة في القرآن، فقال:  
﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ  
مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. لأن المطلوب من  
الإنسان أن يكون أعلى، وميثاقنا ورسولنا ﷺ يقول  
كما في الصحيح: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ  
إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ».  
فالمؤمن القوي تجده عالي الهمة، لا يرضى من  
العبادة إلا أحسنها وأخلصها وأصدقها، وكذلك

لا يرضى بالأخلاق الدنيئة، وقد تبارى أهل الحرف وصناع الكلمة في إثارة الهمم وفي قدح العزائم، حتى يقول عليه السلام: «إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ». يقول الصحابة عليهم السلام: «حَتَّى فِي الدُّعَاءِ عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ عُلُوُّ الْهَمَّةِ». فلا ترض بمجرد الجنة، بل اسأل الله الفردوس «فَأِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَوَسَطُ الْجَنَّةِ وَمِنْهَا تَنْفَجُرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ». الحديث. وقد سطر بعض الشعراء قصائد في همهم على اختلاف بينهم، فبعضهم صاحب همة الدنيا، مثل: المتنبى. يريد الدنيا يريد المنصب ويريد الشهرة، فيقول في قصيدة مائة رائعة:

أَطَاعِنُ حَيْلًا مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ	وَحِيدًا وَمَا قَوْنِي كَذَا وَمَعِيَ الصَّبْرُ
وَأَشْجَعُ مَنِّي كُلِّ يَوْمٍ سَلَامَتِي	وَمَا تَبَتَّتْ إِلَّا وَفِي نَفْسِهَا أَمْرُ
تَمَرَسْتُ بِالْآفَاتِ حَتَّى تَرَكْتُهَا	تَقُولُ: أَمَاتِ الْمَوْتُ أَمْ دُعِرِ الدَّعْرُ (١)
وَأَقْدَمْتُ إِفْدَامَ الْأَيْسِي كَأَنْ لِي	سِوَى مُهْجَتِي أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وَتْرُ (١)
فَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زَقًا وَقِيئَةً	فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السِّيفُ وَالْفَتَكَةُ الْبِكْرُ (٢)

إلى أن يقول:

وَتَرَكْتُكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا	تَدَاوَلَّ سَمْعَ الْمَرْءِ أُنْمَلُهُ الْعُشْرُ (٣)
---	--

هذا مذهبه. لكن الشافعي يخالفه في قصيدة مائة رائعة، والشافعي يريد ما عند الله؛ لأنه عالم رباني من مدرسة محمد عليه السلام، الشافعي يختلف عن المتنبى، بلا شك أن المتنبى عبقرى في الأدب وفي صنع الكلمة وفي إرسال الحرف، ولكن الشافعي «وَلَكِنْ كَوْنُوا رَبَّنِيحِينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ» [آل عمران: ٧٩]. فالشافعي يقول:

- (١) الأئي: السيل. فإذا جاء السيل فلا يردّه راد، فإن اعترضه جبل صعده وإن واجه صخرًا طمّنه وإن مرّ بشجرة اقتلعها.  
 (٢) أي الموت بالحوادث والأزمات.  
 (٣) يقول: يكون لك سهيل وچلجة وصلصلة وزلزلة.

## علو الهمة

أَمْطِرِي نُؤُؤًا - سَمَاءَ سَرْنَدِيْبٍ -  
 وَفِيضِي أَبَارَ تَكَرُّورِ تَبْرًا  
 أَنَا إِنْ عِشْتُ لَسْتُ أَعْدَمُ حُبْرًا  
 وَإِذَا مِتُّ لَسْتُ أَعْدَمُ قَبْرًا  
 هِمَّتِي هِمَّةُ الْمُلُوكِ، وَنَفْسِي  
 نَفْسُ حُرِّ تَرَى الْمَدْلَةَ كُفْرًا

وساروا على ذلك يصفون لك علو الهمة، حتى إن الشوكاني يقول عن نفسه في كتابه (نيل الأرب): إن الذي شحذ همتي بيتان من الشعر. قرأهما وهو في الشباب.

فأحياناً تقرأ بيتاً يوردك الردي، وأحياناً تسمع قافية تشجعك على الخيل، حتى إنهم يرون أن معاوية رضي الله عنه رجع من صفين بعدما كاد يهرب حتى ذكره بعض الناس، وقال: كيف تهرب؟ وابن الإطلابة يقول:

أَبِي لِي شِيْمَتِي وَأَبِي حَيَائِي  
 وَأَخَذَ الْمَجْدُ بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ  
 وَقَوْلِي - كُلَّمَا جَشِئْتُ وَجَاشْتُ -  
 مَكَانَكَ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

أما قول:

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ جَشِئْتُ وَجَاشْتُ  
 مِنَ الْأَبْطَالِ وَيَحْكُ لَنْ تُرَاعِي

فهي لقطري بن الفجاءة، وبعضهم ضبطه قطري والصحيح أنه قطري بن الفجاءة أبو نعامة:

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ جَشِئْتُ وَجَاشْتُ  
 فَبِإِنَّكَ لَوْ سَأَلْتِ بَقَاءَ يَوْمِ  
 مِنَ الْأَبْطَالِ وَيَحْكُ لَنْ تُرَاعِي<sup>(١)</sup>  
 عَلَى الْأَجْلِ الَّذِي لَكَ لَمْ تُطَاعِي  
 فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا  
 فَمَا نَيْلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ  
 وَلَا تَوْبُ الْبَقَاءِ بِثَوْبِ عِزِّ  
 فَيُطَوَّى عَنِ أَخِي الْحَنَعِ الْيُرَاعِ

(١) يقول لنفسه: لانتهري، بل جاء وقت الموت فانتبهي.

فالشاهد أن الشوكاني يقول: إن الذي شجعني على طلب العلم والسهر وحفظ المتون بيتان حفظتهما للشريف الرضي - الشاعر المشهور - الذي يقول مخاطباً نفسه:-

أَفْسَمْتُ أَنْ أُورِدَهَا حُرَّةً      وَقَفَّاحَةً تَحْتِ غَدَامٍ وَقَفَّاحِ  
إِمَّا فَتَى نَالَ الْمُئْتَى      أَوْ فَتَى زَارَ الرَّدَى فَاسْتَرَاحِ

إما أن أنال المجد أو أزور الردى وأموت، ولذلك نظمت أنا عليها بيتين، فقلت:

إِذَا سَأَلْتَ اللَّهَ فِي كُلِّ مَا      أَمَلْتَهُ نِلْتَ الْمُئْتَى وَالنَّجَاحِ  
بِهِمَّةٍ تُخْرِجُ مَاءَ الصَّفَا      وَعِزْمَةٍ مَا شَابَهَا قَوْلُ: أَح

لأن قول: أح. علامة الفتور والبرود والانهازم.

يقولون لعنترة: كيف تغلب الرجال وأنت جسمك جسم الرجال؟ قال: ضع إصبعك في فمي وأضع إصبعي في فمك. وقال: عض إصبعي وأعض إصبعك. ففعلاً حتى قال الرجل: أح. فسحب إصبعه وقال عنترة: بصبر ساعة غلبت الرجال. هذه هي الهمة أن تصاول الأحداث وتقف مستعيناً بالله ﷻ: لأن من صبر وواصل واستمر، فسوف ينجح بإذن الله ﷻ، حتى إنهم يقولون: لما أسرع الفرس ركبته الملوك، ولما أبطأ الحمار جعلوه للأحمال، حتى يقول الشاعر:

سَوْفَ تَرَى إِذَا انْجَلَى الْغُبَارُ      أَفْرَسٌ تَحْتَكَ أَوْ حِمَارُ

وقد زرنا حديقة الحيوان في أنبونيسيا قريباً من (جاكرتا) فوجدنا كل الحيوانات بأشكالها وألوانها؛ الأيل والغزال والفهد والعجاوات والنسور، ولما أتينا إلى الأسد وإذا رجال الأمن واقفون عنده بسياراتهم وإذا هو يارك على مكان مرتفع كأنه على عرش وإذا هو ينظر بعينيه ويحملق في الناس، قلت: حق لك أن تكون ملك الغابة.

## علو الهمة

ولذلك، فإن الله ﷻ لما وصف المشركين قال: ﴿كَانَ لَهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ۝٥٠﴾  
 فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿المدثر: ٥٠-٥١﴾. والقسورة: الأسد. ومن أسمائه: القسورة،  
 والليث، والغضنفر، وأسامة، وحيدرة، والهزبر. وأسماء كثيرة، يقولون: إذا عَظَّمَ  
 الْمُسَمَّى كَثُرَتِ الْأَسْمَاءُ. ولذلك فالله أعظم من كل عظيم، وله تسعة وتسعون  
 اسماً ﷻ عظيمة كلها جليلة.

وبالمناسبة، فمن أسمائه: حيدرة. حتى إن علي بن أبي طالب عليه السلام يسمونه  
 حيدرة الذي يقول:

أَنَا الَّذِي سَمَّنِي أُمِّي حَيْدَرَهُ      كَلَيْتَ غَابَاتِ كَرِيهِ الْمُنْظَرَهُ  
 أَكَيْلُكُمْ بِالسَّيْفِ كَيْلَ الْمُسْنَدَرَهُ

فإذا اجتمع الجِدُّ والجَدُّ فذلك الخير، فالجَدُّ هو الحظ والجِدُّ هو العمل  
 والسعي والكسب، يقول المتنبى:

هُوَ الْجَدُّ حَتَّى تَفْضَلَ الْعَيْنُ أُخْتَهَا      وَحَتَّى يَكُونَ الْيَوْمُ لِلْيَوْمِ سَيِّدَا

يقول: هو حظ من الله أن أعطى سيف الدولة وجعله يفوز على الناس وعلى  
 الملوك بحظ عظيم، لأنه يقول:

هَنِيئًا لَكَ الْعَيْدُ الَّذِي أَنْتَ عَيْدُهُ      وَعَيْدٌ لِمَنْ زَكَّى وَصَلَّى وَوَحَّدَا  
 ومطلع القصيدة يقول فيها:

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا

وهي تدل على الهمة العالية، ويصفه بالبحر وأنه هائج في تقدمه، يقول:

هُوَ الْبَحْرُ خُضَّ فِيهِ إِذَا كَانَ سَاكِنًا      عَلَى الدَّرِّ وَاحْدَرَهُ إِذَا كَانَ مُزِيدَا

إلى آخر ما قال، فقصدي أن الجَدُّ إذا اجتمع مع الجِدِّ بلغ الإنسان من الرقي  
 مبلغاً عظيماً. وأذكر أن إسحاق بن يونس قيل له: ما النجاح؟ قال: يقوم النجاح

على ثلاثة أركان: العمل، ثم العمل، ثم العمل. مثلما قيل لنا بليون: ما هي شروط كسب المعركة؟ قال: تَكْسَبُ المعركة بثلاثة شروط: بالمال، ثم المال، ثم المال. وهذا من الأجوبة الذكية، وقد مر معنا أخبار كثيرة، لكن أذكر على سبيل المثال أن أبا إسحاق الشيرازي من علماء الشوافع، وهو صاحب (المجموع شرح المذهب). يقول: والله إنني كنت أكرر الدرس، قبل أن أشرحه لطلابي مئة مرة. تفرغ للعلم وحياته كلها علم، قال: والله إنني كنت أعيد القياس بالقياس ألف مرة. حتى نحل جسمه وصار عالم الدنيا، يقول فيه الشاعر:

تَرَاهُ مِنَ الذِّكَاةِ نَحِيلَ جِسْمِ      عَلَيْهِ مِنْ تَوْفِيقِهِ دَلِيلُ  
إِذَا كَانَ الْفَتَى ضَخْمَ الْمَعَالِي      فَلَيْسَ يَضُرُّهُ الْجِسْمُ النَّحِيلُ

ولذلك فإن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان نحيل الجسم، لكن انظر ماذا فعل بعمله؟ في الهجرة الأول وفي الجهاد وفي الصدقة وفي الذكر وفي الصلاة، وفي الخطابة وفي الإنفاق، حتى استحق أن يكون الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وسلم بالصديق، وذكر وصفه تنويهاً بالقرآن وصار في المرتبة الأولى أفضل الصحابة رضي الله عنهم، فأخباره عظيمة.

والإمام أحمد طاف الأقاليم في طلب الحديث، سافر إلى صنعاء ماشياً وفي طريقه معه إسحاق بن راهويه يقول: دعنا نمر نأخذ عمرة بالبيت. ماذا يريدون في صنعاء؟ يريدون العالم المحدث الكبير عبد الرزاق بن همام الصنعاني، فخرجوا بنية أن يصلوا إليه في صنعاء، وفي أثناء طريقهم - بين بغداد واليمن - قال للإمام أحمد: دعنا نمر بالبيت ونعتمر. فمروا بالبيت وهم يطوفون وإذا عبد الرزاق بن همام الصنعاني أتى للعمرة وقربه الله لهم في مكة، قال إسحاق: يا أحمد، هذا عبد الرزاق قد حضر وقد قرب الله علينا المسافة وسهل علينا. قال أحمد: لا والله أنا لا أبطل نيّتي التي خرجت بها، والله لا أطلب الحديث عنه. حتى يعود إلى صنعاء وأذهب. فلما عاد رجع الإمام أحمد وسافر لليمن، ومشى

## علو الهمة

في الطريق وانتهت نفقته واشتغل مع الحصادين يحصد الزرع بأجرة، وذهب بالأجرة وطلب الحديث وواصل التعليم وواصل نشر العلم والفائدة، حتى إنه صار عالم الدنيا.

وقرأت عن ابن حبان المحدث الكبير صاحب الصحيح، يقول: لعلني رويت عن أئمة شيخ، طاف الأقاليم كلها: الحجاز، ومصر، والشام، والجزيرة، واليمن، وخراسان، وما وراء النهر. فروى عن ألفين من العلماء، قال الذهبي: لله در الهمم. لأن هذا يبلغ به أن يطوف على هؤلاء جميعاً ويسجل أحاديثهم ويكتبها، أمر عجيب.

ومنهم سيبويه، فإنه لما تُوِّفِي قال أهل السير: عمره كان (٣٧ سنة). لكن العبقرية لا تعترف بعمر، بعض الصحابة رضي الله عنهم توفي دون الثلاثين، لكنه ترك علماً، قدم جهاداً، قدم خيراً ونفعاً، معاذ بن جبل رضي الله عنه عمره (٣٢ سنة) في بعض الروايات وهو قائد العلماء يأتي أمام العلماء يوم القيامة برتوة، أي: رمية حجر. يقودهم إلى جنات النعيم، هذه هممهم التي سجلوا بها وأثروا بها في الناس، البخاري يقول: ما كتبت حديثاً في الصحيح - عند تبييض - الحديث إلا توضأت وصليت ركعتين واستخرت الله. توضأ عند كل حديث واستخار الله وصلى ركعتين لهمة تنطح الثريا وعزم نبوي يزرع الجبال، فنحن بحاجة إلى همة، يقول الشاعر:

لَا تُحَسِبِ الْمَجْدَ تَمَرًا أَنْتَ أَكَلُهُ  
لَنْ تُدْرِكَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبْرًا<sup>(١)</sup>

يقول شوقي:

وَمَا نَيْلُ الْمَطَالِبِ بِالتَّمَنِّي  
وَلَكِنْ تُؤْخَذُ الدُّنْيَا غَلَابًا

فالمسألة مسألة المغالبة والمصارحة هي لك أو لأخيك أو للذئب، فالسوق مناهية، فلا تظن أن من نام سوف يدرك المجد، بل يدرك المجد من قام حتى إن المتنبّي يقول - عمّن يمدحه -:

(١) الصبر: نوع من الثمر المر.

إِذَا تَغَلَّغَلَ فِكْرُ الْمَرْءِ فِي طَرْفٍ مِنْ مَجْدِهِ غَرِقَتْ فِيهِ خَوَاطِرُهُ

وفي بيت آخر يقول:

قَلِيلُ سُهَادِ الْعَيْنِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ يُؤْرِقُهُ فِيمَا يُشْرِفُهُ الْفِكْرُ

يقول: لا ينام مثلاً ينام الناس، تراه يتقلب في المنام يفكر في أشياء ومشروعات يفتتحها، يفكر في خير في النهار، يفكر في أمر يحدثه، فيه نفع لنفسه وللناس، يكون الله عز وجل عنك راضياً وتكون أنت راضياً عن نفسك ويكون من حولك راضين عنك، وتقدم عملاً نافعاً لغيرك، هذا هو النجاح، فيمدح الممدوح هذا بأنه قليل النوم يفكر فيما يرفعه وفيما يُعلي قدر الإنسان، وترى الناس سواسية من لحم ودم لكل واحد عيان ولسان وأذنان وشفقان ورجلان ويدان، لكن هناك الهمة تمر الهمة مر السحاب ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

حتى إن ابن الجوزي قال: إن بعض الناس يرضى بأن يحفظ قصار المفصل؛ قصار السور. وبعضهم يقول: جزء يكفيني. وبعضهم لا يرضى إلا بالقرآن كله، وبعضهم يقول: القرآن والقراءات السبع معها، وبعضهم يحفظ أحاديث الصحيحين وغيرها وغيرها، فيزداد من الخير. ولذلك فدرجات الجنة بحسب الهمة، فنسأل الله الهمة العالية.



## المنظومات

المنظومات في العرب غير القصائد وهي الأراجيز، والأرجوزة بحر خفيف تنظم فيه العلوم والفنون، ولذلك لخصته يسمونه: حمار الشعراء. كل ينظم عليه، حتى إن ابن مالك نظم عليه الألفية في النحو، وقال:

قَالَ مُحَمَّدٌ هُوَ ابْنُ مَالِكٍ

أَحْمَدُ رَبِّي اللَّهُ خَيْرَ مَالِكٍ

وبعض الشعراء يستخدمه في قصائده ليس نظماً، لكن لخصه هذا البحر بحر الرجز،

ويأخذونه في المعركة، فالأبطال إذا برزوا لخفة هذا البحر يستخدمون أبياته في المعركة، فعلي بن أبي طالب عليه السلام يقول:

أَنَا الَّذِي سَمَّيْتَنِي أُمِّي حَيْنَرَهُ      كَلَيْتَ غَابَاتِ كَرِيهِ الْمُنْظَرَهُ  
أَكِيلُكُمْ بِالسَّيْفِ كَيْلَ السُّنْدَرَهُ

وهذا أحدهم يقول:

أَنَا الَّذِي سَمَّيْتَنِي أُمِّي مَرْحَبُ      شَاكِي السِّلَاحِ بَطْلُ مُجْرَبُ  
إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَنْهَبُ

ويقول الأحنف بن قيس: إنه كان في خراسان يجاهد في سبيل الله، فأخذ الراية وقال:

إِنَّ عَلَيَّ رَاعِي السِّوَاءِ حَقًّا      أَنْ يُخْضِبَ الصَّعْدَةَ أَوْ تَدُقَّا

يقول: إن الواجب على القائد إذا أخذها أن يأخذها بحقها، إما أن يخضب الصعدة (الحربة) أو تدق في يمينه، وإن لم يقم بهذا الحق، فلا يحق له أن يكون قائداً، ومن أحسن المنظومات المقصورة لابن دريد التي يقول فيها:

يَا ظَبِيَّةَ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالْمَهَا      تَرَعَى الْخُرَامَى بَيْنَ أَشْجَارِ النَّقَا

جاء فيها بأبيات من الحكمة ومن الفهم ومن العمق، حتى يقول فيها:

وَأَنْتَ مَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ      فَكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لِمَنْ وَعَى  
وَالنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمْ كَوَاحِدٍ      وَوَاحِدٌ كَالْأَلْفِ إِنْ أَمْرٌ عَنَّا

فجاء بهذه الأمثال والحكم وضمنها مقصودته، وبعض الأقران حسده على منظومته؛ لأنها انتشرت بين الناس. وأحدهم عارضه، فقال:

مَنْ طَبَخَ الدِّيكَ وَلَمْ يَذْبَحْهُ      فَرَمِنَ القَدْرِ لِحَيْثُ انْتَهَى

كي يضحك الناس عرض بمقصورة ابن دريد، وهذا معروف ولا يحتاج إلى  
حكمة، فالإنسان إذا أخذ الديك وهو حي ووضعه في القدر يضر.

مَنْ دَخَلَتْ فِي عَيْنِهِ مَسَلَةٌ <sup>(١)</sup>      فَسَلَّهُ مِنْ سَعَتِهَا عَنِ العَمَى  
وَحَمْلُ تَمْرٍ مِنْ حُمُولِ بَرِّهِ      أَفْضَلُ لِلْمُسْتَكِينِ مِنْ حَمْلِ النُّوَى

يقول: التمر أفضل من النوى، أراد أن يسخر من ابن دريد.

ويقول ابن مالك في الألفية:

وَالأَصْلُ فِي الأَخْبَارِ أَنْ تُؤَخَّرَا      وَجَوَّزُوا التَّقْدِيمَ إِذْ لَا ضَرَرَا

أي: الأصل في الخبر مجيئه بعد المبتدأ، وجوزوا التقديم (إذ لا ضررا)، كأن يتقدم الجار والمجرور  
تقدم الخبر على المبتدأ، ونحو: محمد كريم. كريم خير فلا  
نحو: في البيت محمد. فإن محمدا هنا صار مبتدأ مؤخرًا، فقال أحدهم ينظم:

وَالأَصْلُ فِي الأَخْبَارِ أَنْ تُطْمَرَا      وَجَوَّزُوا التَّرْقِيقَ إِذْ لَا ضَرَرَا

فالأصل في الخبر أنك تضعه على الجمر، ولكن لو وضعت قليلاً من العجين،  
فلا بأس بذلك.

أحدهم اسمه عامر الأنبوطي رد على ابن مالك، فقال:

يَقُولُ عَامِرٌ هُوَ الأَنْبُوطِي      أَحْمَدُ رَبِّي لَسْتُ بِالقُنُوطِ  
الأَصْلُ فِي الأَخْبَارِ أَنْ تُطْمَرَا      وَجَوَّزُوا التَّرْقِيقَ إِذْ لَا ضَرَرَا  
وَصَبَّ شَاهٍ مِنْ عَمَى البَرَادِي      وَأَصْبَبَ لَهُ فِي سَاعَةِ المُرَادِ  
وَكَمَّهِ وَغَطَّ بِهِ بِأَلْمُنَشْفَةِ      وَأَصْبِرَ لَهُ فِي سَاعَةِ وَاسْتَعْلَفَهُ

(١) أي: إبرة.

هذا كله تضييع للوقت وإضحاك للإخوة، حتى تستمر النفوس على طلب الحق.

بعض الساسة كتب تقريره السياسي الذي رفعه لدولته بأرجيز، فمثل اليمن لدى دول الانحياز الإمام أحمد بن حميد الدين رفع تقريره بأرجوزة؛ لأن اليمن لم تكن على وفاق مع جمال عبد الناصر، بينهم خلاف، وكان جمال معه تيتو ونهرو، فيقول ممثل اليمن:

هَاتِ التَّحِيَّةَ وَكَذَا سَلَامِي	أَرْفَعُهُ لِحَضْرَةِ الْإِمَامِ
وَالْعَالَمُ الثَّلَاثُ فِي نِزَاعِ	مُخْتَلِفُ الْأَهْوَاءِ وَالْأَطْمَاعِ
قَدْ دَعَا إِلَى اجْتِمَاعِ النَّاصِرِ	مِنْ أَجْلِهِ تَيْتُو وَعَبْدُ النَّاصِرِ
يُصَارِعُ الْقُنْبُلَةَ الذَّرِيَّةَ	بِحِزْمَةٍ فِي رَجْلِهِ قُوِيَّةَ
وَفِي السُّوفُودِ غَايَةَ عَيْنِيَّةَ	أَطْنُهَا مِنْ أَسْرَةٍ غَنِيَّةَ
تَلْمَحُهُ الْأَبْصَارُ بِالتَّوَالِي (١)	وَبِالْخُصُوصِ مِنْ سَفِيرِ مَالِي

وأذكر مرة أني نظمت قصيدة على أفضية ابن مالك وقد سمعها بعض العلماء والفضلاء، قلت فيها:

وَلَا يَجُوزُ الْإِبْتِدَاءُ بِالنُّكْرَةِ	وَمَنْ أَجَارَ ذَاكَ فَهُوَ بَقْرَةٌ
--	--------------------------------------

فإن ابن مالك يقول:

وَلَا يَجُوزُ الْإِبْتِدَاءُ بِالنُّكْرَةِ	مَالِكٌ تَضَدُّ ك: عِنْدَ زَيْدٍ نَمْرَةٌ
--	---

لكن العلماء استخدموا بحر الرجز في نظم العلوم، حتى إن الصنعاني نظم بلوغ المرام، وأنا ضد أن يُنظَمَ كلامه ﷺ لأن كلامه أجمل من كل كلام وأجمل من كل شعر، وأجمل من كل أدب وأجمل من كل خطابة، كلامه ﷺ الذي يقول:

(١) أي: ممثلة غانا، أو غينيا.

«أوتيتُ جوامعَ الكلمِ». أفصح من نطق بالضاد، كيف تنظم كلامه ﷺ؟ لا تكن هذا اجتهد حتى يحفظ، فالصنعاني نظمها، فيقول:

حَمِيدًا لِمَنْ بَلَغْنَا الْمَرَامَا      وَزَادْنَا مِنْ فَضْلِهِ إِكْرَامَا  
ثُمَّ صَلَاةُ اللَّهِ تَتْرَى مَا سَرَى      بَرَقَ عَلَى طَيْبَةٍ أَوْ أُمِّ الْقُرَى  
مَعَ السَّلَامِ يَغْشِيَانِ أَحْمَدَا      وَآلِهِ الْمُسْتَثْمِرِينَ الرَّشَدَا

وبدأ ينظم، ويتم المتن في بلوغ المرام، حتى يقول:

أَمَا إِذَا رَأَى الْمَاءَ عَلَى الْمَرَافِقِ      فَالِدَارِ قَدْ ضَعَفَهَا وَالْبَيْهَقِي (١)  
وَضَعَفَ الْكُلُّ حَدِيثَ الْبِسْمَلَةِ      عَلَى الْوُضُوِّ وَضَعْفُوا مَنْ نَقَلَهُ

لأن في الحديث إدار الماء على المرافق، وأنا رددت عليه، بعدما قرأت صحة الحديث في السند، قلت:

وَصَحَّحَ الْبَعْضُ حَدِيثَ الْبِسْمَلَةِ      وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ - أَيْضًا - وَصَلَهُ

فهم ينظمون العلوم في منظومة؛ حتى يحفظها طالب العلم، فينظمون النحو والفرائض وأصول الفقه، ونحو ذلك.

والحريري له منظومة في النحو جميلة نحو (٤٠ بيتًا) يقول - من ضمن أبياتها -:

وَالْحَرْفُ مَا لَيْسَ لَهُ عِلْمَةٌ      فَحَسَّ عَلَى قَوْلِي تَكُنْ عِلْمَةٌ

لأن الاسم له علامة فيدخل عليه الجروالند أو أل، ولل فعل علامة على الماضي والمضارع والأمر، بابها في باب النحو، لكن الحرف ليس له علامة.

(١) الدار، هو: الدارقطني.

وأذكر أن طالباً حفظه أبوه بعض الآيات هذه كان في الابتدائي فدخل مفتش عندهم، فقال المفتش للطالب: كيف تُفَرِّق بين الحرف والفعل والاسم؟ فقال الطالب:

وَالْحَرْفُ مَا لَيْسَ لَهُ عِلْمُهُ      فَحَسَّ عَلَى قَوْلِي تَكُنْ عِلْمُهُ

فقال المفتش: سوف أقيس على قولك، وتكون علامة في المستقبل إن شاء الله.

فبعضهم يحفظ العلوم، حتى يقول أحد الناظمين في بعض مسائل النحو:

كَانَ وَأَضْحَى ثُمَّ صَارَ أَضْحَى      لَيْسَ وَأَمْسَى انْصَكَ زَالَ بَرِحَا

وهذه كان وأخواتها، هذا في نظم النحو.

وأحسن من نظم النحو صاحب الخلاصة ابن مالك الأندلسي، فإنه فتح عليه في هذه وأوتي قبولاً من صحة نيته، فكان عابداً زاهداً والله عز وجل نسب له القبول في هذه المنظومة، جاء بأشياء فيها من الولاء لله ولرسوله ﷺ حتى يقول:

تَرْفَعُ كَانَ الْمُبْتَدَأَ اسْمًا وَالْحَبْرُ      تَنْصِبُهُ كَانَ سَيِّدًا عَمْرُ

يقولون: إن بعض الشيعة سمع البيت وشرحه، فقال:

تَرْفَعُ كَانَ الْمُبْتَدَأَ اسْمًا وَالَّذِي      يَلِي كَكَانَ سَيِّدًا عَلِي

فيريد أن يأتي بهذا، وعلي ﷺ فاضل وعمر ﷺ فاضل رضي الله عنهم جميعاً وجمعنا وإياهم في دار الكرامة، ما دام الله رضي عنهم وزكاهم وعدلهم، وصاحبوا رسول الله ﷺ فرضي الله عنهم وأرضاهم، ويقول ابن مالك يرد على المعتزلة الذين يقولون: إن الله لا يرى في الآخرة.

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدًا      فَضُوئُهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

﴿لَنْ تَرِنِّي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فإن الزمخشري قال: لن تراني، لافي الدنيا ولا في الآخرة. وأهل الاعتزال يرون أن رؤية الله لا تكون في الدنيا ولا في الآخرة، والسنة يرون أن الله لا يرى في الدنيا ذلك أنه يقول لموسى عليه السلام ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾. لكن في الآخرة ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. وقال عليه السلام عن أعدائه: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُجُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. فقال الشافعي: لما حجب عن أعدائه دل على أن أولياءه يرونه. فنسأل الله أن يرينا وجهه الكريم في جنات النعيم، فيقول ابن مالك:

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدًا      فِقُوْلُهُ أُرْدُدُ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

مؤبداً دائماً في الدنيا والآخرة. فاردده واعضد قول أهل السنة؛ لأن لن لا تفيد التأييد في النفي، لكنها تفيد النفي حتى أمر مؤقت، فاعضد سواه وهو قول الحق، فانظر كيف نظم هذا في منظومته؛ لأن منهجه كان سديداً في ذلك، فاتاه سعة وقبولاً في هذا الأمر.

وأذكر من المعاصرين ممن أجاد النظم الشيخ حافظ الحكمي وهو علامة نابغة إلى درجة العبقرية، مات وعمره (٢٧ عاماً) وألف ما يقارب أربعين كتاباً، ومن ضمن نظمه في العقيدة، قوله:

وَالْمَوْتُ فَادْكُرْهُ وَمَا وِرَاءَهُ      فَمِنْهُ مَا الْأَحْدِيدِ بِرَأَاهُ  
وَأِنَّهُ لِلْفَيْصَلِ الَّذِي بِهِ      يَنْكَشِفُ الْحَالُ فَلَا يَشْتَبِه  
خُذْ وَاصْبِحِ الْحِلِّ وَدَعْ مَا اشْتَبَهَا      مَخَافَةَ الْمُخْبُورِ يَا مَنْ فَتَّهَا  
وَأَزْهِدْ بِدُنْيَاكَ وَأَقْصِرِ الْأَمَلَ      وَاجْعَلْ لِرُوحِهِ اللَّهِ أَجْمَعَ الْعَمَلَ  
لَا تَحْتَقِرْ شَيْئاً مِنَ الْمَأْتِمِ      وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِمِ  
وَمَنْ بَقَاءَ اللَّهِ قَدْ أَحَبَّ      كَمَا أَنَّ لَهُ اللَّهُ أَشَدَّ حُبًّا  
وَعَكْسُهُ الْكَارَهُ فَاللَّهُ اسْأَلْ      رَحْمَتَهُ فَضَالاً وَلَا تَتَّعِلْ

ثم يقول:

وَالْقَبْرِ رَوْضَةٌ مِنَ الْجَنَّةِ      أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّيِّرَانِ  
 إِنَّ يَكُ خَيْرًا فَاذْنِي مِنْ بَعْدِهِ      أَهْوُونَ عِنْدَ رَبِّنَا لِعَبْدِهِ  
 وَإِنْ يَكُنْ شَرًّا فَمَا بَعْدُ أَشَدُّ      وَيُلْ لِعَبْدٍ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ صَدُّ

وينظم المتن ويأتي بالأحاديث بنصها وفصها بسلاسة أعذب من شهد العسل إذا مزجتها بماء الغمام بارداً، ثم مززته مزراً، وهذا ميزة الذكاء في هذا العالم (٢٧ سنة)، حفظ القرآن في شهر، شهد له العلماء زملاؤه، فقالوا: نشهد أنه كان يقرأ جزءاً في النهار فيحفظه ويصلي بنا في الليل في التراويح وهو شاب ولا يخرم حرفاً واحداً، وكان يحفظ المنظومات والقصائد في ذهنه، وكان يفتي ويرد على المسائل، ومات وهو في (٣٧ سنة) وقد أصبح عالماً من أكبر العلماء، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

كان عليه السلام جالساً في المسجد، بعد صلاة العصر، بعد صلح الحديبية، والصلح ألا يتقض العهد لا من الطرف هذا ولا من الطرف هذا، ورسول الله عليه السلام على الوفاء وهو أصدق الناس وأوفاهم، وإذا برجل أناخ جملة في طرف المسجد اسمه عمرو بن سالم، وهو من خزاعة؛ لأن خزاعة اتفقوا مع الرسول عليه السلام وبكر مع قريش، ونزل وقال:

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا      حِيفَ أَبِيْنَا وَأَبِيكَ الْأَتَلَدَا  
 فَانْصُرْ - رَعَاكَ اللَّهُ - نَصْرًا مُزِيدًا      وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَسَدًا  
 فِي فَيْلِقٍ مِثْلَ الصَّرِيمِ سَرْمَدًا      إِنَّ قُرَيْشَ أَخْلَضُواكَ الْمَوْعِدَا  
 وَنَكَتُوا مِيثَاقَكَ الْمَوْكِدَا      وَقَتَلُونَا رُكْعَا وَسُجْدَا

قال عليه السلام: «نصرت يا عمرو بن سالم». ثم نظر عليه السلام في السحاب فاستنزل النصر من الله، فنصره الله نصراً مؤزراً، وفي الطريق أنزل عليه، وقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا﴾ [الفتح: ١-٣]. نصر ما سمع التاريخ بمثله، نصر أوقف الزمان، نصر صفت له الدنيا، وتفتحت له أبواب السماء، نصر سجله عليه السلام أبد الدهر، وكان ابن رواحة رضي الله عنه يقول - في مجلسه ويُشدد بين يدي الرسول عليه السلام :-

وَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا

قال عليه السلام: اهتدينا.

وَلَا نَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

قال عليه السلام: صلينا.

فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا

قال عليه السلام: علينا.

وَتَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَاقَيْنَا

قال عليه السلام: لاقينا.

فهذا من بحر الرجز البحر الخفيف، الذي يتشاده الناس، وعسى الله جعله أن تنظم منظومة في الآداب، كما نظم بعض العلماء كابن شرف وغيره منظومة في الآداب والأخلاق، وأنا أفكر في ذلك، لكن الهمم صغرت على الناس وشغل الناشئة والشباب بسبب ما جد في هذا العصر، فإذا الإنسان أقبل بهمة وبحافظة قوية وأقبل على المعرفة والعلم فتح الله عليه، وترون سلفنا كيف سجلوا أروع

القصص في حفظ المتون وفي حفظ المنظومات وحفظ الأشعار، حتى إن ليبيد  
لما دخل على النعمان بن المنذر يقول:

وَنَحْنُ بَنُو أُمِّ الْبَنِينِ الْأَرْبَعَةِ      وَمِنْ خِيَارِ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ  
الْمُطْعَمُونَ الْجَفَنَةَ الْمُدْعَعَةَ      وَالضَّارِبُونَ الْهَامَ تَحْتَ الْخَيْضَعَةَ

إلى أن انتهى من القصيدة.

